سليمان فيّاض

الوجه الآخر للخلافة الإسلامية

ميريت للنشر والمعلومات

الوجه الآخر للخلافة الإسلامية

مختارات ميريت
إشراف: حسنين كشك

سليمان فياض

الوجه الآخر للخلافة الإسلامية

الطبعة الأولى
القاهرة ١٩٩٩

ميريت للنشر والمعلومات
المدير العام: محمد هاشم

الغلاف
إهداء من الفنان
حامد العويضي

رقم الإيداع / ٩٩/٢٧٧٧

سليمان فيّاض

الوجه الآخر للخلافة الإسلامية

ميريت
للنشر والمعلومات

مقدمة

في بداية العقد الثالث من القرن العشرين سقطت الخلافة العثمانية، وسقط بسقوطها نظام الدولة الدينية والمدنية معا، وكانت رابعة الخلافات الإسلامية الكبرى، التي عرفها تاريخ المسلمين ، بعد خلافة الخلفاء الراشدين.

سقطت هذه الخلافة مثلما سقطت من قبلها الخلافات الأموية، والعباسية، والفاطمية، وكانت كلها خلافات قهر امبراطورية، لأسر ملكية حاكمة، أموية كانت أو هاشمية، أو تركية عثمانية، خلافات يضع خلفاؤها على وجوههم أقنعة الدين، إذا جاز أن يكون للدين قناع، فقد كانوا في حقيقتهم ملوكا دنيويين، يستخدمون شعارات الدين لإخضاع البلاد، والعباد، ويهدمون في كل يوم مقاصد الدين، ومن هذه المقاصد: العدل، وحرية الاعتقاد، والأمن، والتكافل الاجتماعي، والإخاء والمساواة، واستقلال بيت مال المسلمين، عن بيوت أموال الحاكمين.

وحين سقطت الخلافة العثمانية، انفتح الطريق لنظام أو أنظمة الدولة المدنية، المشرعة لقوانين مدنية، في كل مالم يرد به أمر أو نهى من أمور الدين، والتي تحقق في الوقت نفسه، بسلطان الحكم الشورى ، مقاصد الدين.

وإثر سقوط الخلافة العثمانية آخر الخلافات في تاريخ المسلمين، تباكى فقهاء ودعاة تراثيو الثقافة والمعرفة. على ضياع الخلافة، وتجاهلوا كل تاريخ خلافات القهر، التي قمعت بالغزو كل الشعوب، باسم الدين، وفرضت الجزية على كل من أسلم من أبناء هذه الشعوب، مخالفة بهذا الفرض، أمرا من أوامر الدين: لا جزية على من أسلم، فبذلك الأمر عمل الرسول، وبذلك الأمر عمل الخلفاء الراشدون. واتهمت هذه الخلافات القهرية كل المسلمين غير العرب، الذين أسلموا بعد فتح بلادهم بالشعوبية، لأنهم طالبوا بالمساواة، وبتحقيق مقاصد الدين، على أيدى الحكام الدنيويين الغازين.

وراح هؤلاء الدعاة يكتبون ويخطبون داعين إلى عودة الخلافة في العقدين الثالث والرابع من القرن العشرين، وكأن نظام الخلافة من أركان الإسلام، وفروض الدين، بعد عصر الخلفاء الراشدين.

وطمع ملوك دنيويون، في أسر عربية أو تركية حاكمة، في السعودية، وفي مصر، في أن يكونوا خلفاء للمسلمين، في القرن العشرين، واصطنع لهم علماء وفقهاء وكتابا دعاة أشجار أنساب، تنتمي إلى آل البيت.

لكن التيار الإسلامي المدني كان جارفا، ففشلت محاولات العودة إلى النظام الخلافي في العقد الخامس من القرن العشرين.

ومع تنامي حركات الجمعيات والجماعات الإسلامية، في العقد السابع من القرن العشرين، عادت الدعوة إلى نظام عودة الخلافة، واصطنعت هذه الدعوة لنفسها تنظيمات إرهابية، ترفع شعار الجهاد. وتكفر النظم الإسلامية المدنية، وكافة المسلمين في هذه الأنظمة، فعين هؤلاء الدعاة على الهدف الأخير، من كل التنظيمات السرية، والعمليات الإرهابية.

والهدف هو إقامة نظام الخلافة من جديد، والعودة بالحاضر إلى الماضي، بمظالمه، وصراعاته، وفتنه، وثوراته، ومصارع رجاله، وإلغاء حق الشعوب المدني والدنيوي، في تقرير المصير، واختيار نظام الحكم الشوري المدني، واختيار الحاكمين، وتحديد مدة حكم الحاكم، بل مدد المجالس الشورية المنتخبة، تفاديا لقهر الحاكمين، وتجديدا لنظام الحكم وروحه، كل بضع سنين.

ولقد أثبت تاريخ المسلمين، فشل تجارب الخلافات الإسلامية السنية، والشيعية، وبأيدي مؤرخين مسلمين، في العصور الوسطى، وفي العصر الحديث ممن كتبوا عن وقائع الخلافة، وأحداثها، وممن كتبوا عن خفايا بلاطات هذه الخلافات، وعن انشقاق الشعوب الإسلامية، في دول مسلمة، عن جسم دولة الخلافة، هربا بدينهم ودنياهم معا من القهر الخلافي ومظالمه، وتحقيقا لحق الشعوب في تقرير مصيرها، واستغلالها لثرواتها، وعائد عملها وعرقها.

وكتبوا عن وقائع مفزعة لخلفاء القهر في حكم الشعوب، وفي صراعات هؤلاء الخلفاء مع بعضهم البعض، ومع أمرائهم وولاتهم وعمالهم.

ومع ذلك يسعى سفهاء العقل، والذين لم يستفيدوا من دروس التاريخ، وتجارب الخلافات الإسلامية، إلى عودة نظام الخلافة، وهم يعلمون أن مثالب هذا النظام في إدارة أمور الدنيا، تطغى على أحلام الحالمين .

لقد اعتدنا فيما نكتبه عن عصور الخلافة، على ألسنة فقهاء ودعاة، وفي كتب التربية والتعليم، أن نتحدث عن ازدهارات للخلافة الإسلامية، الأموية، والعباسية، والفاطمية، وفتوحات هذه الخلافات، وثراء أغنيائها، وحركة تجارتها الداخلية والخارجية، والتطور العلمي النظري، والعملي، في ظل هذه الخلافات، لكننا تجاهلنا مثالب هذه الخلافات، وصور قهرها للشعوب، ولأبناء هذه الشعوب، ومحن الفقهاء والعلماء والكتاب والوزراء، في ظل خلافات القهر، وسلبها لحق هذه الشعوب المسلمة في تقرير مصيرها.

تجاهلنا هذا الوجه الآخر لأنظمة خلافات القهر.

وغايتنا من هذا الكتاب، أن نستل من كتب المؤرخين المسلمين، القدامى منهم والمحدثين، ومن تحليلات هؤلاء المؤرخين، صور هذا الوجه الآخر لخلافات القهر، الوجه القبيح، ونضعها بين أيدي القارئين عامة، والداعين إلى عودة النظام الخلافي خاصة، في العالم العربي، والعالم الإسلامي، وأحسبهم سيكتشفون أن نظام الخلافة لا ينبغي للمسلمين أن يعودوا إليه مرة أخرى، فهو نظام فرضته العصور الوسطى، وكان طبيعيا أن يوجد في تلك العصور.

في العصور الوسطى، كان وجه الأرض كله، في قارات العالم الثلاثة، المعروفة في تلك العصور، يحكم بأسر حاكمة، تقدم لحكم الشعوب حكاما يحملون ألقاب: الملك، والسلطان، والامبراطور.

وقدم العالم الإسلامي الوليد للحكم أسرا حاكمة ، يحمل بنوها المختارون للحكم، لقب خليفة.

وكان المقصود بهذا اللقب في عصر الخلفاء الراشدين أن الحاكم خليفة، لأنه يخلف من سبقه، إلى أن اجترأ الخليفة العباسي أبو جعفر

المنصور فجعل الخليفة، خليفة لله سبحانه فى أرضه، وظل الله الممدود على الأرض. ولعله وجد من الفقهاء ورجال الحاشية، من يفسر له آية الاستخلاف لآدم ، بأنها تعنى أن الخليفة هو خليفة الله، الذى اختاره الله، ولم يختره العباد، ، والآية لم تعن أكثر من أن الجنس البشرى بأسره (من أبناء آدم) قد استخلفه الله فى الأرض، لتعمير الأرض.

ولم يكن ممكنا ، فى غيبة تجارب أخرى لأنظمة الحكم السائدة، فى عصور العالم القديم، والعالم الوسيط، أن يوجد تصور آخر ، غير تصور نظام الخلافة، لحكم المسلمين، تصور كان الخليفة الحاكم فيه فردا، يحكم طوال عمره، ويختاره صفوة أهل المدينة الحاكمة، ليكون حاكما خليفة لكل المسلمين، بصرف النظر عن كونه من آل البيت (على بن أبى طالب) أو من غير آل البيت (أبو بكر، وعمر، وعثمان).

ثم فرض منطق العصر فى نظام الحكم، وفى مواجهة أسر عالمية حاكمية، يحمل حكامها لقب: امبراطور، وكسرى، وملك، فرض أسرا إسلامية حاكمة من آل البيت أو من غير آل البيت، وفرض منطق العصر نفسه، تلك الصراعات السياسية الدامية، فى تاريخ المسلمين بين الأسرة المسلمة الحاكمة، وأسرات أخرى كبرى، قبلية بالضرورة تسعى إلى الحكم بدعاوى عربية، أو فارسية، أو تركية، أو بربرية، وترفع شعارات الإنقاذ للدين، تماما مثلما كان يحدث فى بلاد فارس والروم

كان ذلك هو منطق العصور الوسطى، وواقعها ، فى أنظمة الحكم. وتحت هذا المنطق، ومع ذلك الواقع، اندرجت الخلافة الإسلامية، بعد ثلاثة عقود فقط، من عصر النبوة، ولم يكن ممكنا فى تلك العصور سوى هذا التصور لنظام الحكم الإسلامى، الذى مد أجنحته على أراضى وشعوب بلاد مفتوحة، انهارت بفتحها امبراطوريتا: الفرس، والروم، وكانت هاتان الامبراطوريتان هما قوتا التوازن الدولى، فى تلك العصور. وإثر هذه الفتوحات بقليل، وبقوة أسرتين حاكمتين مسلمتين، صار نظام الحكم الجديد مثل نظام الحكم القديم، الفارسى، والرومانى، فلم يتغير فى البلاد المفتوحة شيء، سوى أن أهلها صاروا مسلمين بعد أن كانوا غير مسلمين، وأن ونظام الحكم الساسانى، أو البيزنطى، صار هو نظام الحكم الخلافى .

ولقد قدمت العصور الحديثة، للجنس البشرى، أنظمة ديمقراطية للحكم والإدارة، أثمرتها التفاعلات الحضارية السابقة، عبر العصور، وأثمرتها التفاعلات الدولية فى العصر الحديث، والثورات الكبرى الحديثة، وعلى أساس من حق الشعوب فى تقرير مصيرها، وحق الشعوب فى الاستقلال بهذا المصير، وحق الشعوب فى اختيار حاكميها من بين من يرشحون أنفسهم للحكم، أو ترشحهم القوى الاجتماعية والتيارات السياسية، وبالتصويت العام، الذى يستوى فيه صفوة الشعب، وعامة الناس.

ولا مفر لمسلمي اليوم من الأخذ بحقوق الإنسان فى العصر الحديث، وهى حقوق من مقاصد الدين الإسلامى، فلم يفرض هذا الدين نظاما وحيدا للحكم. ولا تصورا وحيدا للشورى.

فمن المستحيل أن نزرع طرائق العصور الوسطى، فى الحكم، فى عصرنا الحديث. ومن المستحيل أن نعيد إلى عالمنا أوجها قبيحة للحكم، أوجه الحكم الاستبدادى الشمولى بنزوعاته الامبراطورية، وسعيه للتوسع دائما، باسم تأمين الحدود، أو باسم الدعوة للدين، فالحدود لا نهاية لها عندئذ، والدعوة للدين، لا تكون بالتوسع، وإنما فقط، بالدعوة للدين بالتى هى أحسن، بخطاب العقل للعقول.

إن منطق العصر، يفرض تداول الحاكمين للحكم وتجديد المحكومين للحاكمين، ويفرض تجدد أهل الشورى، كل بضع سنين، تحقيقا للعدل فى الحكم، ودرءا للفساد فى الأرض، ودفعا لشهوات الحاكمين، وأتباع الحاكمين، فى السيطرة على رقاب العباد، وسلب أموال العباد، ويفرض مراقبة تصرفات الحاكمين والأتباع، ومحاسبة الحاكمين والأتباع، فالدولة هى كل الشعب ، وليست الدولة هى الحكومة والحاكمين.

"ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض"، وذلك هو درس القرآن الكريم، وبالله التوفيق.

القاهرة فى : أكتوبر 1998

سليمان فياض

خلفاء القهر

1- الخلفاء الأمويون:

م	اسم الخليفة	سنوات حكمه	مدة حكمه
1	معاوية بن أبى سفيان	660-680م	عشرون سنة
2	يزيد بن معاوية (الأول)	680-683م	ثلاث سنوات
3	معاوية الثانى	683-683م	أربعون يوما
4	مروان بن الحكم	684-685م	سنة واحدة
5	عبد الملك بن مروان	685-705م	عشرين سنة
6	الوليد بن عبد الملك	705-715م	عشر سنوات
7	سليمان بن عبد الملك	715-717م	سنتان
8	عمر بن عبد العزيز	717-720م	سنتان وسبعة شهور
9	يزيد بن عبد الملك	720-724م	أربع سنوات
10	هشام بن عبد الملك	724-743م	تسع عشرة سنة
11	الوليد بن يزيد بن عبد الملك	743-744م	سنة وشهران
12	يزيد بن الوليد	744-744م	خمسة أشهر

سبب وفاته	نسبه
مرض ومات على فراشه	عربى الأب والأم
مات على فراشه	عربى الأب والأم
كان مريضا ومات على فراشه	عربى الأب والأم
قتلته زوجته	عربى الأب والأم
مات على فراشه	عربى الأب والأم
مات على فراشه	عربى الأب والأم
مات على فراشه	عربى الأب والأم
يشاع أنه مات مسموما من أقرباته	عربى الأب والأم
حزنا على جارية أحبها	عربى الأب والأم
مات على فراشه	عربى الأب والأم
أغضب أكابر أهله، فتجمعوا عليه بالسيوف وقتلوه فى بيته	عربى الأب والأم
مات على فراشه	عربى الأب والأم

م	اسم الخليفة	سنوات حكمه	مدة حكمه
13	إبراهيم بن الوليد	744-744م	شهران
14	مروان بن الحكم	744-749م	خمسة سنوات

2- الخلفاء العباسيون:

1	أبو العباس السفاح	750-754م	أربع سنوات وتسعة أشهر
2	أبو جعفر المنصور	754-775م	عشرون سنة
3	المهدى	775-785م	عشر سنوات
4	الهادى	785-786م	سنة واثنان وعشرون يوما
5	هارون الرشيد	786-809م	ثلاث عشرة سنة
6	الأمين	809-813م	أربع سنوات ، وثمانية أشهر
7	المأمون	813-833م	عشرون سنة
8	المعتصم	833-842م	تسع سنوات
9	الواثق	842-847م	خمس سنوات
10	المتوكل	847-861م	أربع عشرة سنة
11	المنتصر	861-862م	سنة واحدة

نسبه	سبب وفاته
عربى الأب والأم	كان ضعيفا، فخلعه مروان، وقتله
عربى الأب والأم	آخر الخلفاء الأمويين وقتله العباسيون.

عربى الأب والأم	مات مريضا بالجدرى
عربى الأب وأمه بربرية	مرض فى رحلة ومات
عربى الأب، وأمه يمنية	مات مسموما ، بسم وضعته له جارية فى طعامه
عربى الأب، أمه جارية فارسية	قتلته أمه بدس من وضع له السم
عربى الأب ، أمه جارية فارسية	مرض ومات
هاشمى الأب والأم	قتل على يد الجيش الخراسانى لأخيه المأمون
عربى الأب، وأمه جارية فارسية	أصيب بالحمى فى إحدى الغزوات
عربى الأب، وأمه جارية	مرض ومات
عربى الأب، وأمه جارية	مرض ومات
عربى الأب، وأمه جارية تركية	تآمر ابنه المنتصر عليه، مع الترك وقتله، القائد التركى باغر بالسيف
عربى الأب، أمه جارية تركية	قتله الجند الأتراك

م	اسم الخليفة	سنوات حكمه	مدة حكمه
12	المستعين	862–866	أربع سنوات
13	المعتز	866–869م	ثلاث سنوات
14	المهتدى	869–870م	سنة واحدة
15	المعتمد	870–892م	سنتان وعشرون سنة
16	المعتضد	892–902م	عشر سنوات
17	المكتفى	902–908م	ست سنوات
18	المقتدر	908–932م	أربع سنوات
19	القاهر	932–934م	سنتان
20	الراضى	934–940م	ست سنوات
21	المتقى	940–944م	أربع سنوات
22	المستكفى	944–946م	سنتان

تلى هؤلاء الخلفاء خلفاء بالاسم فقط ، ليس لهم من السلطة شيء، ولذلك دامت خلافتهم طويلا، وماتوا على فراشهم ، وتركوا الصراع على الملك لغيرهم من بنى بويه، والسلاجقة.

نسبه	سبب وفاته
عربى الأب، أمه جارية	نفاه الجنود الترك، وقتلوه
عربى الأب ، وأمه جارية	ثار ضده الأتراك ، وحبسوه فمات جوعا وعطشا
عربى الأب، وأمه جارية	ثار عليه الجنود الترك، وقتلوه
عربى الأب، وأمه جارية	مات مريضا بعد أن خلعه أخوه الموفق، ويقال إنه مات بيد أخيه
عربى الأب، وأمه جارية	مات على فراشه
عربى الأب، وأمه جارية تركية	مات على فراشه
عربى الأب، وأمه جارية رومية	خلعه قواده وقتلوه
عربى الأب، وأمه جارية	خلعه جنوده وسجنوه ثلاثين سنة حتى مات
عربى الأب، وأمه جارية	مات على فراشه
عربى الأب، وأمه جارية	قبض عليه القائد التركى توزون، وسمل عينيه وقتله
عربى الأب، وأمه جارية رومية	خلعه معز الدين البويهى وقبض عليه

مدخل

لماذا اختلف المسلمون؟

-١-

يختلف الناس ، كل الناس ، مسلمين وغير مسلمين فى آرائـــهم ، فى كل العصور ، اختلافا قد يصل إلى التكفير ، وحمل السلاح، واســـتباحة الدم والأعراض. وأسباب الاختلاف ترجع إلى الاختلاف بين الناس ، فـــى العقائد والمصالح، إلى وجهات النظر فى الأفكار والموضوعات الغامضة ، والجهل بوجهات نظر الآخرين ، بل بموضوع النزاع ، ووجهات النظـــر فيه ، وقد قال سقراط لتلاميذه : "لو عرف موضع النزاع، لبطل كل نزاع". ويختلف الناس لاختلاف الرغبات والشهوات والأمزجة بينهم، والرغبة كمـا يقول اسبينوزا هى التى ترينا الأشياء مليحة أو قبيحة لا بصيرتنا.

وتاريخ الفكر البشرى كما يقول وليم جيمس ، هو تاريخ التصادم بين الأمزجة البشرية، فى ميادين الأدب والفن، والحكمة والأديان.

ويختلف الناس لاختلافهم فى الاتجاه والمنـــهج ، مثـــل اختـــلاف الفقهاء ، وعلماء الكلام، فهؤلاء يقولون بالعقل، وأولئك يقولـــون بـــالنقل. ويختلف الناس، لتقليدهم ، للسابقين ، ومحاكاتهم، دون تحكيم للعقـــل مـــن المقلدين. والتقليد يسيطر على القلوب. وأفكـــار الســـابقين تســـيطر علـــى العقول. فيكون الجدال غير المنتج، بين المصفدين بقيود الأسلاف من حيـث لا يشعرون . ومن التقليد ينشأ التعصـــب. فقدسـية الآراء التـــى يقلدهـــا الشخص تدفعه إلى التعصب لها ، وكلما كـــان التعصـــب شـــديدا ، كـــان الاختلاف شديدا. والتعصب يؤدى دائما إلى التكفير داخل الأمة الواحـــدة ، واستباحة البعض لدماء البعض ، والحرب بين الأمم، ونادرا ما يكون سبب التعصب هو قوة الإيمان ، فالمتعصب لا يفتح قلبه وفكره إلا على جـــانب واحد ، هو آراء السابقين ، أو بعض السابقين.

ويختلف الناس بسبب تفاوت المدارك والعقول ، فمن المدارك مـــا ينفذ إلى الحقيقة ، ومنها مالا يحيط إلا بجزء منها، ويقف عند هذا الجـزء، ومنها ما يسيطر عليه الوهم ، ومنها ما يذهب به الخيال فى متاهات فكريـة

مختلفة ، تحت سلطان أفكار موروثة. والعلماء أنفسهم مثل العامة ، قد تسيطر عليهم الأوهام ، وتغشى على بصائرهم ، وكيف يتفق فكر الفقيه السلفي، مع فكر العالم ذى العقل المنطقى الرياضى؟ وكيف يتفق العقل الشاعرى المتحرر ، مع عقل الفقيه المتعبد بنصوص فقهاء سابقين؟

ويختلف الناس جميعا ، لاختلاف مناهجهم السياسية، وأكثرهم يرغبون فى السلطان ، وتقودهم هذه الرغبة الخاصة إلى آراء تتعلق بالحكم، والاندفاع في تأييد هذه الآراء، مدعين أنها الحق والصواب .

ويختلف الناس جميعا ، لانتماءاتهم العصبية القومية ، أو العنصرية، ويندفعون بها أيضا إلى طلب الرياسة والسلطان .

*

وأخطر أسباب الخلاف بين الناس اختلاف العلماء المنافقين، علماء اللسان ، غير حكيمى القلب ، الذين يصير لهم أنصار يندفعون لتأييدهم اندفاعا ، ويعلنون آراءهم مجاهرة ، ويخدعون أنفسهم بأن ما يدعون إليه هو الحق ، ولقد روى عن الرسول صلى الله عليه وسلم فيما روى عنه: "أخوف ما أخاف على أمتى رجل منافق عليم اللسان ، غير حكيم القلب، يغيرهم بفصاحته وبيانه، ويضلهم بجهله".

فليست ذلاقة اللسان ، دليلا على العلم، بل لعلها، غالبا، دليل على الجهل والنفاق ، وانعدام الحكمة فى القلب ، بانعدام الحب للناس ، والرحمة بالناس. ومثله ذلك المتعالم، نصف الشيخ، الذى يركب صهوة منبر ، ويقول أنا وراءه حتى أفرق بينه وبين ربه، وأنا وراءه حتى أفرق بينه وبين زوجته، ولعله الآن يقول مرة أخرى مثلما قال قبل شهور: "أنا وراءه حتى القبر" .

*

عبر أربعة عشر قرنا من الزمان ، اختلف المسلمون فى مذاهب الاعتقاد والسياسة، والفقه، ولم يختلفوا فى لب الدين وجوهره .

لم يختلف المسلمون في وحدانية الله ، والشهادتين ، ولم يختلفوا فى أن القرآن الكريم نزل من عند الله تعالى .

ولم يختلفوا فى أصول الفرائض ، كالصلوات الخمس، والزكاة والحج، والصوم ، ولا فى طرق أداء هذه الفرائض، ولا فى المحرمات، ولا فى القواعد العامة للميراث.

ولكن المسلمين اختلفوا ، واختلافهم شر كله ، حول بعض العقائد، وحول السياسة ، فكانوا فرقا متناحرة بالرأى وبالسيف ، وبالتكفير وتحريم التفكير على من سواهم.

اختلفوا ، وأخذ خلافهم طريقين : طريق علمى لم يفرق الأمة وطريق عملى فرق الأمة، وأذهب وحدتها بين أفرادها، وأسرها ، فى السياسة ، وشئون الحكم، وبعض العقائد، ويرجع **الإمام الشيخ الجليل محمد أبو زهرة** هذا الخلاف فى كتابه القيم **"تاريخ المذاهب الإسلامية"** إلى العصبية العربية، وهى جوهر الخلاف بين المسلمين فى تاريخهم الإسلامى، مع أن الإسلام قد حارب العصبية بنصوص القرآن والسنة، فعادت العصبية الجاهلية، إلى حياة العرب الذين أسلموا بين العلويين والأمويين، والهاشميين والربعيين من الخوارج . وأدت هذه العصبية إلى التنازع على الخلافة منذ الخلاف الأول بين المهاجرين والأنصار. ومن أسباب الخلاف بين المسلمين، الخلاف بين العرب المسلمين ، وأهل الديانات القديمة السابقة ، الذين دخلوا فى الإسلام ، وصاروا يفكرون فيه، وفى الحقائق الإسلامية ، على ضوء اعتقاداتهم القديمة، وبينهم كان مخلصون فى إسلامهم ، ومنافقون فى هذا الإسلام يظهرون غير ما يبطنون، ويزرعون أفكارهم حول الجبر والاختيار، وصفات الله : هل هى ذاته أو غير ذاته ، والقرآن هل هو مخلوق أو غير مخلوق، فكانت طوائف الشيعة ، والفرق الأخرى.

ومن أسباب الخلاف بين المسلمين ، تصدى العلماء للبحث فى مسائل غامضة بفروض نظرية ، تأثروا فيها بمناهج الفلاسفة ، مثل مسألة إثبات صفات الله تعالى ونفيها ، وقدرة العبد بجوار قدرة الرب.

ومن أسباب الخلاف ، انتشار القصاص فى المساجد، منذ العهد الأموى، وانزلاقهم إلى إدخال الإسرائيليات فى كتب التفسير التى "تدرس إلى اليوم بالأزهر الشريف" وكتب التاريخ الإسلامى ، وقد جهد الخلفاء والأمراء ودعاة الفرق فى الاستعانة بهؤلاء القصاص "الوعاظ" لمشايعتهم بين العامة، ومناصرتهم للوصول إلى الحكم، أو لاستمرار بقائهم فيه، وعندئذ تسوء العقبى، ويجيش القصاصون، وألسنة القصاصون، ويمتشق مسلمون السلاح لمحاربة المسلمين بالإرهاب، أو بالحرب ، بالاغتيال السياسى ، أو بالجيوش.

ومن أسباب الخلاف بين المسلمين ورود آيات متشـــابهات فـــى القرآن الكريم ، إلى جانب الآيات المحكمات، والآيات المحكمات صريحـــة وقاطعة ولا تحتاج إلى تأويل ، والآيات المتشابهات تحتاج إلى التسليم بـــها دون تأويل، لكن بعض العلماء يتصدون إلـــى تأويلـــها، وعندئـــذ يحـــدث الاختلاف في التأويل اختلافا مبينا ، فتحدث الفرق الإسلامية فى الإســـلام، وينقسم العامة بين أهل هذه الفرق.

ومن أسباب الخلاف بين المسلمين ، اختلاف الفقهاء واختلافـــهم رحمة وشر فى آن واحد، فى استنباط الأحكام الفقهية ، فى أمور لم يرد بها نص فى قرآن كريم ، أو سنة شريفة ، والنصوص تتناهى، والحـــوادث لا تتناهى، وتحتاج إلى استنباط أحكام وفتاوى فقهية لكل حادثة من الحـــوادث. وقد اختلف الفقهاء فى هذا الاستنباط بالاجتهاد ، واختلف الحكام فى الأخـــذ والعمل بهذا الاجتهاد، فى الحكم والفتوى من عصر إلى عصر، ومن بلـــد إلى بلد.

وكان الاختلاف رحمة ، فبوسع كل أن يختار فتوى هذا أو ذاك ، ليعمل بها.

وكان الاختلاف شرا فى الوقت نفسه، فبوسع كل أن يختار فتـوى هذا أو ذاك، ليحكم بكفر خصم، ويهاجم حريته فى التفكير ، ويقطع رقبته ، ويستحل دمه وعرضه وماله.

والفقه قانون ، وليـــس جـــزءا مـــن الشـــريعة ، لأنـــه اجتـــهاد والمجتهدون مختلفون ، وكيف يحمل القرآن والسنة هذا الاختلاف ؟ وكيـف تصبح هذه الثروة الفقهية الخلافية ، التى تعد بالآلاف (مثلما تعد القوانيـــن فى مصر الآن) جزءا من شريعة الإسلام؟

ذلك كان الخلاف العلمى، وتلك كانت آثاره فى اختلاف المسلمين، فكيف كان الخلاف العملى بين المسلمين فى تاريخ المسلمين؟

-2-

بدأ الخلاف والاختلاف في التاريخ الإسلامي ، جزئيا ، ونظريا وعمليا ، بين صحابة الرسول (صلى الله عليه وسلم) بعد وفاته . ثم انتقل منهم ، وعنهم ، إلى العلماء والفقهاء ، من التابعين ، وتابعي التابعين، وتابعي تابعي التابعين ، ثم امتد الاختلاف ليسرى بين عامة المسلمين ، في كل بلاد الإسلام ، وفي كل العصور الإسلامية التي حكم فيها ، خلفاء نبوة، وخلفاء ملك يورث ، وسلاطين ، وأمراء، وتحول ما كان جزئيا من الخلاف والاختلاف ، إلى خلافات كلية ، وما كان صغيرا ومحدودا، إلى خلافات كبيرة ، قامت عليها ، وبسببها دول، وسقطت دول، وحمل فيها السلاح ، وسالت دماء. ومعظم النار من مستصغر الشرر.

إثر عهد رسول الإسلام، وقد غاب النبي الرسول ، وطوال عهد الخلفاء ، حدث الخلاف حول الخلافة للرسول في حكم المسلمين ، والخلافة هي الإمامة الكبرى الواجبة الطاعة ، وعلى الكل أن يسير وراءها ، رعاية للمصالح العامة للناس ، وحفظا للدين، وحماية للحرية ، في العقيدة ، وفي النفس ، وفي المال، وفي الأعراض ، وفي دائرة الشريعة الإسلامية ، ولها دعامتان لا ثالث لهما هما : القرآن والسنة ، فما عداهما فقه واجتهاد ، قد يتحول هذا الفقه والاجتهاد إلى قانون للحاكم والمحكوم ، إذا أجازه الحاكم الخليفة ومستشاروه ، وفقا لمبدأ المصالح المرسلة.

وكان أول خلاف بعد وفاة الرسول ، حول من يكون أول خليفة للرسول ، في حكم المسلمين في الجزيرة العربية ؟ وممن يكون؟ من المهاجرين القرشيين : الهاشميين أو الأمويين ، أم من الأنصار المسلمين من الأوس أو الخزرج. وحلت مشكلة الخلاف الأول باختيار أبي بكر الصديق، الصحابي الجليل العظيم الإسلام، حين تنازل الأنصار والقرشيون معا عن المطالبة بالخلافة ، لقوة إيمانهم الأول، وثقتهم بأبي بكر الصديق.

وحلت مشكلة الخلافة مرة ثانية ، حين اختار أبو بكر عمر بن الخطاب من بعده ، ليكون ثاني الخلفاء المسلمين ، وكان من بني مخزوم، الموالين لبني أمية ، ولم يكن هاشميا ولا أمويا ، ولا من الأنصار .

وبدا أن مشكلة الخلافة ستحل للمرة الثالثة ، بعد عمر ، حين اختار عمر ، وهو يحتضر، وينفث دماء من طعنة خنجر أبي لؤلؤة الفارسي ، اختار مجلسا من ستة ، ليختاروا للمسلمين خليفة من بينهم للمسلمين . وكان أعضاء هذا المجلس قرشيين : ثلاثة هاشميون، وثلاثة أمويون، وليس بينهم واحد من الأنصار ، لا من الأوس، ولا من الخزرج. وحين سئل عمر : ماذا لو حدث أن الهاشميين اختاروا خليفة منهم ، وأن الأمويين اختاروا خليفة منهم ، وتساوت أصوات الاختيار لهؤلاء وهؤلاء ، قال لهم عمر ما معناه : إن الصوت المرجح لأحد الطرفين هو صوت عبد الرحمن بن عوف. وعبد الرحمن بن عوف كان قرشيا من بني أمية ، وسئل عمر: وماذا لو شق أحد الستة عصا الطاعة ، في مبايعة الخليفة المختار ، فقال لهم عمر : اقتلوه.

واجتمع المجلس ، وتم الاختيار في البداية لابن عوف ، لكنه أباها لنفسه ، وكان تاجرا ،وصار فيما بعد واسع الثراء، فاختير عثمان للخلافة ، وبالإجماع ، وتم ما أراده عمر، وحسم فيما بدا الخلاف المتوقع ، باختيار خليفة صحابي جليل، مسن ، محب لذوي قرباه وذوي رحمه من الأمويين، ولا لوم عليه ولا تثريب في هذا الحب. ولربما بقيت نار بعض الهاشميين من قريش تحت الرماد.

وفي عهد خلافة عثمان ، كان معظم مستشاريه ، وولاته على الأقاليم، وعمال الخراج على الدواوين المدنية التي أنشأها عمر، من الأمويين، وكان الأمويون مشهودا لهم بالمهارة في إدارة الحرب والمال والتنظيم ، قبل عهد الرسول في الجاهلية ، وفي عهد الرسول وأبي بكر وعمر في الإسلام في أرجاء الجزيرة العربية ، في الحجاز ، واليمن ، ونجد، والبحرين ، وفي الأمصار المفتوحة.

وبسبب هذا الإيثار الراجح في الاختيار للأمويين ، حدث خلاف امتدت نيرانه إلى عامة المسلمين ، وربما كان يذكيها قرشيون هاشميون ، وبالتأكيد كان يذكيها قرشيون أمويون ، لتكون الخلافة بهذه الفتنة للأمويين، مضحين بالخليفة عثمان ، كما تؤكد ذلك مسيرة الأحداث.

فى عهد عثمان : ظهر الخلاف فى فتن كموج البحر ، كما يقول الشيخ الإمام **محمد أبو زهرة**، وكانت هذه الفتن الخطوة الأولى للافتراق بين المسلمين ، والخطوة الأولى لنشوء المذاهب السياسية حول الخلافة وغير الخلافة . وكانت لهذه الفتن أسباب أثمرت خلافا حادا ، حول استمرار خلافة عثمان.

أول هذه الأسباب سماح عثمان لكبار المهاجرين والأنصار الأولين ، الأحياء بعد عهد الرسول ، بالذهاب إلى الأمصار ، فانسابوا متغلغلين فى الأقاليم الإسلامية ، أنصارا وهاشميين وأمويين ، وكان الخليفة عمر قد منعهم من مغادرة المدينة ، إلا لولاية يتولونها ، أو لقيادة جيش يقودونه، أو لحرب يخوضونها كجنود، فقد كان عمر يريد الانتفاع بهم كصحابة مستشارين ، ويخشى أن يفتن الناس بهم فى الأمصار ، وأن ينتقدوا، وهم فى الأقاليم ، بعيدا عنه، الولاة ، بما لهم من سابقة الصحبة ، وحق الرأى ، والاجتهاد ، والرواية للحديث ، وتفسير آيات القرآن ،وبيان أسباب نزوله ، ولذلك أبقاهم عمر عنده، وحدد إقامتهم فى المدينة.

فتح إذن عثمان بسماحه للصحابة الأحياء بالعودة إلى الأمصار ، وفى غير مهمة للدولة ، أبواب الفرص لنقد ولاة الأقاليم ، وانتقاد الخليفة نفسه، مثلما فعل "أبو ذر الغفارى" فى الشام، وكان واليها منذ عهد عمر هو "معاوية بن أبى سفيان" فقد كان أبو ذر يقول للناس فى الشام: "والله لقد حدثت أعمال ما أعرفها، والله ما هى فى كتاب الله ولا سنة نبيه ، والله إنى لأرى حقا يطفأ ، وباطلا يحيا ، وصادقا مكذبا ، وأثرة بغير تقى ، وصالا مستأثرا به". إلى آخر ما كان يقوله للناس . وشكا "حبيب الفهرى" لمعاوية قائلا: "إن أبا ذر لمفسد عليكم الشام ، فتدارك أهله. إن كان لك فيه (أى فى الشام) حاجة". فشكا معاوية أبا ذر إلى عثمان ، فأعاده عثمان إلى المدينة ، ثم نفاه إلى الربذة ، وكان لنفيه أثر بلا شك فى نفوس الصحابة المقيمين بالمدينة ، والهاشميين ، فأبو ذر هذا هو الذى قال فيه الرسول إنه: "أمة وحده، يعيش وحده، ويموت وحده ، ويبعث أمة وحده". وصدق رسول الله فيما قال عنه، فقد كان أبو ذر تقيا وصادقا وزاهدا.

لكن الشام ، وغير الشام من أمصار الإسلام المفتوحة ، بقى فيها آخرون من أمثال أبى ذر ، وممن استمعوا إلى أبى ذر، وبين السامعين كان أقوام حديثو عهد بالكفر، لم تشرب قلوبهم بعد حب الإسلام ، وفيهم من

يدعون إلى الفتنة ، ويجدون سماعين لهم، وفيهم من ينتمون إلى الهاشميين، وإلى الأنصار ، وإلى قبائل غير قرشية ، وإلى قوميات البلاد المفتوحة وعصبياتها .

وثاني هذه الأسباب، أن بعض أقارب الخليفة عثمان من الولاة على الأمصار ، ومن المستشارين له ، ليسوا من أهل الثقة ، وإن كانوا من أهل الخبرة . ومع ذلك كان عثمان يستشيرهم ، ويكثر من استشارتهم ، ولا يكثر من استشارة علية الصحابة المتفقهين حقا في الدين ، وجوهر الدين ، وروح الدين ، مثل : علي بن أبي طالب ، وسعد بن أبي وقاص ، وطلحة ، وغيرهم ممن كانوا من الخاصة الذين يستشيرهم عمر ، وكان هؤلاء الأمويون ، من أقارب عثمان ، يحاولون ، من وراء ظهره ،وربما أمام عينيه ، أن يقبضوا على ناصية الأمور ، لصالح الأمويين بالطبع ، في المدى القريب والبعيد ، فراحوا يحرضون عثمان على عدم الالتفات إلى لوم اللائمين ، ونقد الناقدين ، إلى أن أحاطت بالمدينة ، وبداره في المدينة، وفود المتألبين عليه وعلى خلافته ، قادمين إليه من مصر ، والكوفة ، حاملي السلاح ، مطالبين بمطالب شتى يعتقدون أنها من حقوقهم كرعية، ومن دينهم كمسلمين.

واستعان عثمان بعلي في صرف المصريين المسلمين خاصة ، فاستمعوا إلى رأيه، وانصرفوا عن حصارهم لدار عثمان ، لكنهم بقوا في المدينة ، ربما منتظرين أن تجاب مطالبهم بتغيير ولاتهم ، وأخذ حقوقهم ، ورفع المظالم عنهم.

ولذلك عاد عثمان يطلب من علي أن يكلم الناس بكلام يقتنعون به، كي يعودوا إلى بلادهم ، ويشهد له عندهم بكلام يفرق به الناس ، فسوف يحقق لهم مطالبهم. وتحدث علي إلى الثائرين ، فرقوا لكلامه ، وبكى كثير منهم تأثرا بقوله ، وعادت سيوفهم إلى أغمادها ، وخمدت نوازع السخط فيهم، وراحوا يستعدون للرحيل عن المدينة ، لولا أن "مروان بن الحكم" الأموي ، مستشار عثمان ، دخل على عثمان بعد حديث علي للناس ، ووعده لهم بلسان علي ، وراح يحذره من الاستجابة للثائرين، ومن إعلانه الإنابة والتوبة على لسان علي ، وقال له : "والله لإقامة على خطيئة يستغفر منها، أجمل من توبة تخوف عليها ؛ وإنك إن شئت تقربت بالتوبة ، ولم تقر بالخطيئة ، وقد اجتمع إليك على الباب مثل الجبال من

الناس ، فقال له عثمان: "فاخرج إليهم ، فكلمهم ، فإني لأستحيي أن أكلمهم". فخرج مروان إلى باب دار عثمان ، والناس يركب بعضهم بعضا من الزحام ، وراح يستفزهم ، ويتوعدهم ، قائلا فيما قال : "كأنكم قد اجتمعتم لنهب ، وجئتم تريدون أن تنزعوا ملكنا (هكذا !!) من أيدينا ، أخرجوا عنا ، والله لئن رمتونا ليمرن عليكم منا أمر لا يسركم، ولا تحمدوا (عندئذ) غب (عاقبة) رأيكم . ارجعوا إلى منازلكم . فإنا والله ما نحن مغلوبين على ما في أيدينا (هكذا!!)". وهكذا أرادها مروان ملكا عضوضا لبني أمية ، لا خلافة تقوم على العدالة ، والشورى ، والطاعة من الرعية عن اقتناع بالعدالة .

وكانت الكارثة الإسلامية الشعبية الأولى ، ضد الخليفة عثمان، وضد نظام الخلافة لأول مرة ، فقد هاجم الثائرون الوافدون دار عثمان ، وكانت قلوبهم قد رقت لكلمات علي ، فاستشهد عثمان وهو يقرأ القرآن في مصحف عثمان ، المصحف الوحيد الذي كان أصله في بيت حفصة، والذي نسخت منه نسخ إلى الأمصار ، وأحرق ما سواها من مصاحف الولاة والصحابة في الأمصار ، فاستقرت من بعده قراءة القرآن ، وآيات القرآن ، كما جمعت في عهد أبي بكر من أوراق البردي ، ورقائق الجلود ، وألواح الخشب، والعظام. وعجز أهل المدينة عن حماية عثمان ، وكان بينهم هاشميون وأنصار ، ساخطون بلا شك، على ما قاله مروان للناس.

وثالث هذه الأسباب ، ما وجه إلى الخليفة عثمان من مسلمي الأمصار ، والصحابة بالأمصار ، من اتهام له بالمحاباة لعبد الله بن سعد ابن أبي السرح الأموي ، حين ولاه ولاية مصر ، بعد ولاية عمرو بن العاص فاتح مصر ، وكان عبد الله هذا قد أباح الرسول دمه، لارتداده بعد إيمان ، فهرب منه، ثم عاد مسلما، وكان عبد الله يظلم في حكم أهل مصر ، ويسهم كيدا في تأليب أهل مصر على عثمان. ولقد اعترف عبد الله بهذا التحريض ، بعد استشهاد عثمان ، عندما قال : "والله إن كنت لألقى الراعي فأحرضه عليه". ولقد انتشرت بين المسلمين أقوال قوالي السوء عن ابن أبي السرح، فقد آمن ، ثم كفر، ثم كذب على رسول الله ، ولم يكن في سياسته كوال أموي على مصر ، رحيما بأهل مصر ، مثلما كان معاوية الأموي رحيما بأهل الشام، ومثلما كان عمرو بن العاص رحيما بأهل مصر ، بل كان غليظا قاسيا على المصريين ، وجريئا في مخالفة عثمان ،

لا يستمع منه إلى نصح، ولا يخاف من تهديد أو وعيد. بـل لقـد تجـرأ فضرب في مصر، من أتوه من قبل عثمان بعد أن شـكوه إلـى عثمـان، حاملين له نصح عثمان ، وتهديده له . عندئذ يئـس النـاس فـي مصـر ، وأكثرهم من العرب، من العدل، وهو من أركان الخلافة الثـلاث ، وفتـح اليأس أبواب الشر، والفتن، والقتل ، والقتال ، وسوء الرأى فـي الخلافـة والخلفاء ، وأنذرهم بعواقب استناد الخلافة إلى عصبية قبليـة أو قوميـة، فالدين قد علا بنصوصه في القرآن والسنة فوق العصبيـات والقوميـات . وهل كان يكفي الإنذار ، أو تغنى النذر، فى إيقاف الطوفان؟

ورابع هذه الأسباب : لين الخليفة عثمان مع ولاته ، ولـم يكـن بعضهم عادلا ، فى مصر ، والكوفة ، فيئس الناس من عدله هو الخليفـة. ولم يكن عثمان بسبب لينه حازما مع ولاته ، وخصوصا فى سوء معاملتهم للرعية بالعدل ، ورعاية المصالح ،ولم يرفع بعد عمر شعار عمر ، حيـن قال : "خير لى أن أعزل كل يوم واليا ، على أن أبقى واليا ظالما ساعة من الزمان".

ومن لين عثمان أنه لم يكن حازما منذ البداية مع الوافديـن مـن الأمصار ثائرين عليه ، ومحاصرين للمدينة ولداره ، حتى إنـهم حصبـوه بالحصباء ، وهو يخطب فيهم على منبر المسجد النبوى ، فالفتنة ليس لـها علاج من الحاكم حين تحدث ، سوى الحزم، ثم بعد ذلك يرد الحـق إلـى نصابه ، ويعزل الولاة الظالمين ، ولو فعل ذلك، منذ البداية ، لنجاء ونجت الخلافة ، واستتب أمن المسلمين وحسم الخلاف ، وكسرت شوكة العصبيـة القبلية الأموية ، وكان عظماء الصحابة من حوله فى ثمانمائة سيف، بقيـة من مقاتلين عظام ، على استعداد لنصرته، ولكنه كان يثبطهم ، ويمنعـهم من نصرته ، منعا للقتل والقتال بين المسلمين . كان رحيم القلـب ، فكـان أول فداء، وكان مقتله بداية البلاء لخلاف المسلمين ، وفتح الباب لفتنة ، بل لفتن، أخذت تموج كموج البحر.

وخامس الأسباب : وجود طوائف من الناقمين علـى الإسـلام، الذين يعيشون فى ظله، ويظهرون نفاق الغيرة عليه، ويضمرون نفاق الكفر به ، فقد راحوا يشيعون أقوال السوء عن ذى النورين عثمان، ويذكـرون بالخير فارس الإسلام : على بن أبى طالب، وينشرون روح الفتنـة بيـن العامة فى الأمصار ، متخذين من مظالم بعض الولاة ذريعـة لدعايتـهم ،

وعلى رأس هؤلاء كان عبد الله بن سبأ اليهودي ، وكان يمنيا من صنعاء ، وأسلم في زمان عثمان ، وراح يتنقل مرتحلا من بلاد الحجاز إلى البصرة، إلى الشام، ناشرا دعايته ضد عثمان ، وذاكرا بالخير عليا بن أبي طالب، ليوقع بين الهاشميين والأمويين ، ولم تنجح دعايته في هذه البلاد ، فسابعد من الشام إلى مصر . وفي مصر راح يقول للناس : "إني أتعجب ممن يقول برجعة عيسى لحكم الدنيا، ومحمد أولى بأن يرجع لحكم الدنيا"، ويقول للناس : "كان ألف نبي ولكل نبي وصي ، وعلي وصي محمد ، ومحمد خاتم النبيين ، وعلي خاتم الأوصياء ، وعثمان أخذها (أي الخلافة) بغير حق، فوصي محمد موجود وحي". ولعله قد راح يؤلف أحاديث في هذا السياق ، وينسبها إلى صحابة رحلوا عن الدنيا بالموت أو بالشهادة .

وصار لابن سبأ دعاة ، يظهرون في العلن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويدعون في السر لآراء ابن سبأ، في عيوب عثمان ، وولاة عثمان ، وفضائل علي فارس الإسلام ، وباب مدينة العلم . فكانوا تنظيما سريا يتحرك بين الناس بوجهين ، ويحيا بوجهين، وبداية لمؤامرة كبرى ، ليس فقط ضد عثمان ، ولشق وحدة المسلمين ، وإنما أيضا لبث الأفكار المنحرفة المفرقة للمسلمين . ومن هنا بدأت بذور المذهب الشيعي، التي راحت تنبت وتتكاثر. كما بدأت بذور مذاهب الخوارج في الظهور ، بين قبائل الربعيين (بني ربيعة).

وحين ولي علي بن أبي طالب الخلافة ، بعد عثمان ، وهو قرشي هاشمي ، كان بخلافته بداية للمعتدلين في الإسلام ، الذين سيظهرون ممثلين لأهل السنة ، أو لجماعة المسلمين، ولكن الشيعة والخوارج كانوا قد ظهروا في الساحة، وهما مذهبان متعارضان، وكان الأمويون يريدون الخلافة من علي ، ويتمردون عليه في الشام وفي مصر ، وفي الجزيرة ، فراحوا يحاربون عليا والهاشميين ومن يؤيدهما ، لينفردوا بالخلافة كأمويين ، ويحيلونها ملكا عضوضا، وساعدهم في الخلاص من علي ، وجود الشيعة ، ووجود الخوارج ، وانتقاضهم على "علي بن أبي طالب".

ولهذا الصراع على الخلافة بين الأمويين والهاشميين، وفي الساحة الإسلامية ، آنذاك، خوارج قبليون - وشيعيون بازغون ، قصة أخرى عن الصراع على الخلافة بين الأمويين والهاشميين .

الفصل الأول

خلافات الفقه الإسلامية

— ١ —

كانت من أسباب الفرقة بين المسلمين قضية الخلافــة ، واختيــار الخليفة ، وممن يكون من العرب ، أم غير العرب ، ومن قريــش أم مــن غير قريش ، فالخلاف والاختلاف بين المسلمين كانت له أسـبابه العمليــة السياسية، وبالتالى تنظيراته الفقهية من الفقهاء ، والفرقية من دعاة الفــرق الإسلامية المنشقين.

بالشورى ، أمر القرآن الكريم ، وسنة رسول الإسلام ، وأولــى المسائل بالشورى مسألة اختيار حاكم للمسلمين ، فى دولة موحدة بالإسلام، أو فى دول ودويلات ، تعتنق دين الإسلام.

فى البدء، انتخب أبو بكر من الصحابة بالمدينة ، بعــد اختــلاف يسير بين المهاجرين والأنصار ، وفى المهاجرين هاشميون، وأمويــون ، وفى الأنصار ، الأوس والخزرج. وأوصى أبو بكر بالخلافة من بعده لعمر بن الخطاب، بعد أن استشار كبار الصحابة فى شأنه.

ووضع عمر مبدأ للشورى ارتآه، رشح فيه ستة ليتفقــوا علــى اختيار خليفة من بينهم ، ووقع الاختيار والاتفاق على الصحـــابى الجليــل عثمان ابن عفان ، وكان أمويا، وجانب الاختيار والاتفاق الصحابى الإمــام على بن أبى طالب الهاشمى .

وكان الاختيار اختيار صحابة ، وصفوة، ثم تتلوه البيعة منـــهم ، ومن أهل المدينة ، وسائر البلاد ، والمدن، والأمصار، عن طريق الــولاة والعمال.

وحين قتل عثمان بن عفان ، بأيدى ثوار الكوفة ومصر ، اختــار الصحابة بالمدينة "**على بن أبى طالب**" ليكون خليفة ، وأيد هذا الاختيار أهل مصر ، وأهل العراق، ولم يتردد فى إعطاء البيعة له سوى بعض الصحابــة من المهاجرين ، ترددوا ثم بايعوا ، وهرب البعض إلــى الشــام لاحقيــن بمعاوية بالشام ، أو لاجئين إلى مكة، وكان معظمهم من بنى أمية بالمدينــة.

وتمت بيعة على بالأغلبية من أهل المدينة : مهاجرون هاشميون ، وأنصار من الأوس والخزرج، وثوار من العراق ومصر.

وهكذا بدا أن الأخذ بالشورى، بدءا بالبيعة الخاصة، يستكمل أساس الشورى بانتخاب أغلبية الصفوة للحاكم، ثم بأهل نجد والحجاز ، وكان على سائر الأمصار أن تبايع بدورها ، من بايعه أهل المدينة ، فقد كانت المدينة في العالم الإسلام ، بمثابة أثينا فى بلاد اليونان .

لكن عليا الصحابى الفارس التقى النقى، الوفى بالعهود، والعالم بالدين قرآنا وسنة، وبالدنيا كمصالح مرسلة لعامة المسلمين، والحريص على مال المسلمين حرص عمر عليه ، والمتشدد فى الحق تشدد عمر فيه، والعادل في رد المظالم عدل عمر معها، سارع بعزل الولاة الذين ولاهم عثمان فى العراق والشام ومصر، ولم ينتظر انتظارا سياسيا ، إلى أن تستقر الأمور بعد استشهاد الخليفة عثمان ، ويهدأ هياج الأمويين والمناصرين للأمويين لدم الخليفة المراق.

ولقد نصحه بعض الصحابة بالانتظار إلى أن تستقر الأمور ، حتى يأتى حزمه في موضعه وحينه، لكنه سارع مع هذا العزل باسترداد الإقطاعيات التى كان عثمان قد منحها لبعض بطانته، والمقربين إليه من أهل بيته الأمويين، وأعاد عطاءات المسلمين من بيت المال إلى ما كانت عليه فى عهد عمر، وكان على فى حياته مستشاره وقاضيه ، ومفتيه.

عندئذ انفجر ضد على سخط الولاة على الأمصار ، الذين أثروا فى عهد عثمان، وعلى رأسهم **معاوية بن أبى سفيان**، وكان معاوية واليا على الشام منذ عهد عمر بن الخطاب . ولقد تمكن معاوية بثروة بلاد الشام، من تكوين حزب قوى ، يضم الأمويين وعرب الشام ، ومسلمى الشام ، وأعلن عدم الإذعان لأمر الخليفة على، وراح ينشر لواء التمرد والعصيان.

هو معاوية الذى لم يسلم إلا عند فتح المسلمين لمكة، وهو معاوية الذى بدأ بمطالبة على بأن يأخذ أولا بثأر عثمان ، ويتتبع قتلته، ويقتلهم ، لكن عليا أصر على أن يعلن معاوية أولا الطاعة له وإعطاء البيعة ، والامتثال لأمره ، ثم يتقدم إليه أولياء دم عثمان ثانيا ليتبع معهم ما يوجبه الشرع ، فلا قصاص من غير دعوى ، ولا إقامة بينة.

وعندئذ نشبت الحرب ، وكانت حربا بين القبائل العربية المسلمة: الهاشميون وأنصارهم من جهة، والأمويون وأنصارهم من جهة أخرى، بين خليفة إمام تمت له البيعة ، ووال متمرد ومعزول . فكانت موقعة الجمل، ثم موقعة صفين ، وهذه الموقعة الأخيرة ، هي الموقعة التى جرى فيها التحكيم، وخدع فيها عمرو بن العاص ، ممثل معاوية فى هذا التحكيم، أبا موسى الأشعرى ، ممثل على فى هذا التحكيم ، فانقسم بهذا التحكيم معسكر على ، حين ظهرت حيلة عمرو بن العاص، بعدوله عن عزل صاحبه معاوية، ناقضا اتفاقه مع أبى موسى بأن يعزل كل منهما صاحبه، ويتركا الأمر شورى لاختيار المسلمين من جند المعسكرين.

وانصرف عن على بعض جنده، ولجأ البعض إلى معسكر معاوية، وثار البعض من الخوارج ضد على ، واتهموه فى دينه، وهم الذين كانوا قد رفعوا المصاحف بين المعسكرين ، مطالبين بالتحكيم . وبذلك ضعف موقف على الخليفة الإمام ، وقوى موقف معاوية أمير الشام المتمرد ، ولم يسفر التحكيم سوى عن بقاء على خليفة واستمرار معاوية أميرا على الشام ، كما كان . ثم صارت مصر إحدى الولايات التى نجح معاوية فى سلخها عن على بجهود **عمرو بن العاص**.

وبين موقعتى الجمل وصفين، كانت أحداث تجرى على أرض مصر ، فى الوقت الذى كان فيه الحجاز والعراق مواليين لعلى. ففى مصر كانت تجرى معارك صغيرة من نوع آخر، بسبب قتلة عثمان من أهل مصر ، فقد عاد الثوار المصريون إلى مصر؛ واحتفلوا احتفال المنتصر فى الفسطاط، وتعاهدوا على الثورة ضد الخليفة الجديد (على بن أبى طالب) إذا حاد عن السبيل، وكان أنصار الأمويين فى مصر يتربصون بالثوار ، ليثأروا منهم لقتل عثمان ، وبايعوا معاوية بن حديج، فقاد محمد بن أبى حذيفة جيشا لمقاتلة جيش ابن حديج وهزمه، ثم هزمه مرة أخرى ، عند مدينة "خربتا" فى الحوف، شرقى الدلتا ، وكان سواد أهل مصر ، يميلون إلى على بن أبى طالب.

وعندئذ قرر معاوية أن يواصل عمله لسلخ مصر عن التبعية لعلى ، فتحرك بجيشه من جند الشام إلى مصر ، وعسكر عند "سلمنت" بعين شمس، فخرج إليه ابن أبى حذيفة وأنصاره ليمنعوه ،وقال معاوية لابن أبى حذيفة ، إنه لا يريد قتالا ، ولكنه يريد رءوس قتلة عثمان ،

وعلى رأسهم عبد الرحمن بن عديس، وكنانة بن بشر ، فرفض ابـن أبـي حذيفة تسليمهم إليه.

عندئذ طلب منه معاوية أن يتبادلا الرهائن ، كي يضمن الجميـع أن يكف الفريقان (الشامي والمصرى) عن الحرب ، وانخـدع ابـن أبـي حذيفة ، وقدم لمعاوية رهائن ، كان هو واحدا منهم ، واستخلف وراءه على مصر الحكم بن الصلت ، ومعه رهائن من جيش معاوية، وصحب معاويـة الرهائن، وحبسهم في اللد بفلسطين، وعاد بجيشه إلى دمشق. لكن الرهـائن هربوا إلا واحدا أبى الفرار ، هو محمد بن أبى حذيفة ، وعندئـذ تتبعـهم عامل معاوية على فلسطين وقتلهم ، وقتل معهم محمد بن أبى حذيفة الـذى أبى الفرار.

ويلغ على مقتل ابن أبى حذيفة والى مصر من قبله ، فولى علـى مصر قيس بن عبادة الأنصاري، فنجح في استمالة المطالبين بدم عثمـان ، من الموالين لبنى أمية.

وعندئذ لجأ معاوية وعمرو بن العاص إلى الحيلة، لإخراج قيـس من ولاية مصر ، فأشاعا أن قيسا من شيعة الأمويين ، لا من شيعة على ، وأن رسائل ترد من قيس إلى معاوية ، ومن معاوية إلى قيس.

وعندئذ أمر على واليه: قيس بـن عبـادة ، بمحاربـة الموالـين للأمويين عند "خربتا"، فرد عليه قيس بأنه أمنهم على أنفسهم ليأمن جانبـهم وحزبهم ، ففيهم كثير من وجوه أهل مصر وأشرافهم .

وعندئذ عزل على هذا الوالى عن ولاية مصر ، وبعث إليها بوال جديد هو : الأشتر بن مالك ، لكن الأشتر لم يكد يصل إلى مدينـة القلـزم (السويس)، حتى شرب شربة من عسل قدم إليه ، فمات منـها. وجـرت مجرى الأمثال قولة لمعاوية : إن لله جنودا من عسل .

وأرسل على إلى مصر واليا جديدا هو محمـد بـن أبـي بكـر الصديق، فأساء إلى الأمويين ، وطلب من زعيمهم معاوية ابن حديـج أن يعلن معه البيعة لعلى ، فأبى الأمويون أن يبايعوا عليا ، فهدم محمد بن أبى بكر دورهم، ونهب أموالهم، وآذى أولادهم، ثم حبسهم، ثم سـيرهم إلـى معاوية بدمشق ، فظلوا عنده إلى أن انتهت موقعة صفين.

وانتهز معاوية الفرصة ، بعد تفرق معسكر على ، فسير عمـرا ابن العاص على رأس جيش من الشام . والتقى هذا الجيش بجيـش أهـل

مصر الذى يقوده محمد بن أبى بكر ، وحمى القتال بين الفريقين ، ونجح معاوية ابن حديج ، وكان قد عاد إلى مصر مع جيش عمرو ، فى أسر محمد بن أبى بكر الصديق وقتله ، وجعل جثمانه فى جيفة حمار ، وأحرقهما بالنار.

وهكذا خضعت مصر للوالى المتمرد معاوية بن أبى سفيان، وفقدها الخليفة على بن أبى طالب، ولم يعد لأهل مصر البالغ عددهم عدة ملايين سوى التبعية لمن غلب ، وصار عمرو واليا على مصر من قبل معاوية ولاية مطلقة ، طوال خمس سنوات تقريبا ، ينفق فيها من بيت مالها على أهل مصر ما يشاء إنفاقه ، ويأخذ ما بقى له ، ولا يرسل بشىء منه إلى معاوية بدمشق.

وعندئذ فقط، وبعد أن نجح معاوية فى سلخ مصر عن على، جهر معاوية بالدعوة إلى نفسه بالخلافة ، وسارع على بن أبى طالب فجمع جيشا قوامه أربعون ألف مقاتل لقتال معاوية ، لكن هذا الجيش لم يكد يتحرك حتى طعن "عبد الرحمن بن ملجم الخارجى" الخليفة الإمام على بن أبى طالب بسيف مسموم، فاستشهد على فى ذكرى غزوة بدر، فى السابع عشر من رمضان سنة أربعين هجرية ، على حين فشل خارجيان آخران فى قتل معاوية بدمشق، وقتل عمرو بن العاص بفسطاط مصر. ونجا معاوية لأن الطعنة جاءت فى "إليته"، ونجا عمرو لأنه لم يغادر بيته إلى المسجد لمرض ألم به، فقتل من خرج ليصلى بالناس نيابة عنه. وكان الخوارج الثلاثة قد اتفقوا على قتل "على" و"معاوية" و"عمرو" فى ليلة محددة، عند صلاة الفجر.

وبمقتل على انتهت صفحة الخلفاء الراشدين من التاريخ الإسلامى الذين كانت بيعتهم تبدأ بالصفوة والنخبة ، وتنتهى ببيعة سائر الناس، وخلا الجو للأسرة الأموية ، ولأى أسر مغامرة أخرى من بعدها ، بأن تجعل الخلافة وراثية فى أبنائها، وتجمع فى قبضة واحدة السلطتين الزمنية والروحية معا، لعقود عديدة من السنين ، وربما لقرون متوالية .

-2-

خلا الجو للأسرة الأموية ، فأعلن معاوية نفسه خليفة بحد السيف تارة ، وبالمكيدة والسياسة تارة ، وبالذهب تارة أخرى ، ولم يعقه (بعض الوقت فقط) عن تنفيذ غايته سوى استخلاف أهل المدينة والحجاز والعراق للحسن بن علي بن أبي طالب. ولذلك لجأ معاوية مرة أخرى إلى إطلاق شائعة بين أهل العراق ، أن جيشا للحسن قد انهزم أمام جيش للشام ، وصدق أهل العراق ، وتراجعوا عن بيعتهم للحسن، وأعطوا البيعة لمعاوية.

واضطر الحسن إلى التنازل عن الخلافة ، حقنا لدماء المسلمين ، ولأنه لم يعد له قبل بمعاوية وجماعته من أهل الشام والعراق ومصر ، واشترط في تنازله لمعاوية ، وكان هذا التنازل صلحا، أن يكون أمر الخلافة بعد معاوية شورى بين المسلمين ، يولون عليهم من أحبوا، ودخل معاوية الكوفة ، وأخذت البيعة لمعاوية بحضور الحسن والحسين ابني علي، وسمى ذلك العام عام الجماعة.

لكن، في عام الجماعة هذا صارت الخلافة بمعاوية ملكا عضوضا يورث، ومحصورا في الأسرة الأموية ينتقل فيها من بيت يزيد بن معاوية إلى بيت مروان بن الحكم لا بأس ، فالمهم أن الخلافة باقية بالتوارث في الأسرة الأموية ، وكانت أول أسرة إسلامية حاكمة في تاريخ الإسلام ، فقد نبذ معاوية عهده مع الحسن، وكان الحسن قد انتقل إلى رحمة ربه، وأخذ معاوية البيعة لابنه يزيد، مستخدما أسلحته الشهيرة سيف المعز وذهب المعز ، ومكائد الداهية، وسياسته مع الشعرة التي لا تنقطع بينه وبين الناس، لأنه يرخيها حين يشدها الناس ، ويشدها حين يرخيها الناس.

وهكذا انتصرت الأسرة الأموية انتصارا ارستقراطيا مدويا في التاريخ كله، انتصارا صارت لهم به امبراطورية، وصار حكمهم حكما

امبراطوريا، يرتدى ثوب الخلافة الإســـلامية ، ويجمــع تحــت عباءتــه السلطتين الزمنية والروحية معا.

ولقد دامت امبراطورية الأسرة الأموية تسعين سنة، لم تسد فيـــها شروط الخلافة ، لا العدل ولا رعاية مصالح الناس ، ولا الشـــورى ، إلا فى زمن قصير ، لرجل واحد هو الخليفة الأموى **عمر بن عبد العزيز**، فقد أعاد عمر هذا عدل جده لأمه عمر بن الخطاب ، والإمام على ، واســـترد الإقطاعيات لبيت المال، وعزل ولاة. وربما لذلك السبب كـــان استشـــهاده مسموما من الناقمين عليه من أمراء الأسرة الأموية ، مثلما استشـــهد مـــن قبله ثلاثة خلفاء راشدين من خلفاء الشورى هم: عمر ، وعثمان، وعلـــى، بينما ظل معظم خلفاء القهر أحياء ، وماتوا على فراشهم.

* * *

والأعوام الثلاثون الأخيرة من عمر دولة بني أمية، كانت أيام تخطيط وتنظيم وتآمر ، اشترك فيها العلويون (الذين قتل منهم بنو أمية المئات ، ومن أتباعهم من الشيعة عشرات الألوف) مع العباسيين الذين ملأ الحزن قلوبهم لما يلقاه العلويون ، وهم من بني هاشم ، من تعذيب وتقتيل، وانتشر الدعاة لآل البيت (بني هاشم) في فارس ، وخراسان ، خاصة ، وبلاد العالم الإسلامي عامة ، يدعون للرضا (أي لمن يرضاه الناس) من بني هاشم، من العلويين أو العباسيين ، وكل من العلويين والعباسيين يضمر أن تكون الخلافة له دون سواه.

وتوج التخطيط والتنظيم والتآمر ، يسانده سخط اليمنية ضد المضرية، بسقوط مروع وسريع لدولة بني أمية ، وللخلافة الأموية الوراثية الاستبدادية القهرية ، فارتفع العلم العباسي فوق دمشق ، والكوفة ، وطورد **مروان بن محمد** آخر خلفاء بني أمية ، حتى قتل في مصر .

وراح أبو العباس السفاح ، المؤسس الأول للدولة العباسية ، يتتبع كل أموي لقتله ، وكل وال أو عامل للأمويين لقتله، وكل نصير للأمويين لقتله ، بعد أن يساموا بالسياط سوء العذاب .

كان بنو هاشم جميعا عباسيين وعلويين يضمرون لبني أمية عداء قديما منذ أيام الجاهلية ، وعداء باقي الأثر، لم تزده الخلافة الأموية ، وأفاعيلها ببني هاشم ، إلا تفاقما وازديادا. وأذكى نيران هذا العداء في بني هاشم ، أشعار الشعراء ، وأقوال رجال البلاط ، مذكرين أبا العباس السفاح، ومن جاء بعده من خلفاء بني العباس ، بما فعله بنو أمية ، من سفك لدماء آل البيت الهاشميين. وكان آخر ، وأخطر دم سفك ، في رأي أبي العباس السفاح هو دم أخيه "إبراهيم الإمام" ، قتيل "حراز" في عهد مروان بن محمد ، آخر خلفاء بني أمية ، وكان إبراهيم الإمام ، هو الداعية المرشح من العباسيين لخلافة دولة بني العباس ، وكان قد نجح في

استقطاب اليمنية، والفرس، وأهل خراسان لكنه قتل، وانتقاما لمقتلـه قتـل عبد الله بن على ، عم أبى العباس السفاح ثلاثمائة أموى، بينهم إبراهيم بـن الوليد، أخو الخليفة يزيد الناقص ، ولقد بعث هذا العم إلـى أبـى العبـاس السفاح ، باثنين من الأمويين لهما شأن كبير ، هما: يزيد ابن معاويـة بـن عبد الملك . وأخوه : عبد الجبار ، فقتلهما السفاح ، وصلبهما ، على شـاطئ نهر أبى فطرس بفلسطين، وقدم إثر قتلهما للقتل خلق كثير (200 قتيل) مـن بنى أمية الهاربين.

وحين أتى لأبى العباس السفاح برأس مروان بن محمد ، ووضـع بين يديه ، سجد السفاح ، وأطال سجوده ، ثم رفع رأسـه قـائلا لـرأس مروان: "الحمد الله الذى لم نبق ثأرى قبلك ، وقبل رهطك . الحمد الله الذى أظفرنى بك، وأظهرنى عليك".

ثم قال : "ما أبالى متى طرقت الموت ، فقد قتلت بالحسين وببنـى أبيه مائتين ، وأحرقت أشلاء هشام بابن عمى "زيد بن على"، وقتلت مروان بأخى إبراهيم (الإمام).

وحين كان هشام بـ البلقاء، كان عنده سليمان بن هشام بن عبـد الملك ابن مروان ، وقد أتاه مبايعا ، فأكرمه السفاح، وأمنه ، لكن "سـديفا" الشاعر دخل آنئذ على السفاح. وقال له :

لا يغرنك مـا تـرى من رجال
إن تـحـت الضلوع داء رويـا
فضع السيف وارفع السوط حتى
لا تـرى فـوق ظـهرها أمويا

عندئذ صرخ سليمان قائلا لسديف: "قتلتنى يا شيخ" . وعندئذ أخـذ السفاح سليمان وقتله.

والصورة الأفظع والأبشع ، حين كان السفاح جالسا ، وقـد قـدم الطعام على مشهد من سبعين أسيرا أمويا. ونهض شاعر واستفز السـفاح يحرضه بشعر، كى يقتل أسراه الأمويين ، مذكرا إياه بقتلى بنى هاشم علـى يد بنى أمية: حمزة بن عبد المطلب عند ماء المـهراس بـأحد، والحسـين بكربلاء ، وزيد بن على ، وأخوه إبراهيم الإمام ، وعندئـذ أمـر السـفاح بأسراه من بنى أمية، فضربوا أولا بالسياط، ثم بسطت النطوع ، وقطعـت

الرءوس، وطعنت القلوب ، وأمر السفاح ببسط البسط فوق جثث القتلى، والذين لا يزالون يحتضرون، ومدت موائد الطعام للسفاح ومن معه من بني العباس فوق البسط، وجلسوا يأكلون ، وموسيقاهم أنين المحتضرين.

وكان إخوة السفاح ، وأعمامه، هناك في البصرة ، والكوفة ، والشام، يستأصلون هنا وهناك شأفة بني أمية ، وينبشون قبور موتاهم ، فلا يجدون بها سوى الرمال.

ولقد ظلت روح الانتقام العباسي تطارد العباسيين ضد بني أمية ، طوال مائة عام، في عهود عشرة خلفاء ، وتتمنى أن تطول أحدا من بني أمية على قيد الحياة، فالعداء كان شديدا ودفينا بين بني أمية وبني هاشم، جاهلية وإسلاما.

ومثلما كان خلفاء بني أمية يلعنون عليا والعلويين من فوق المنابر، راح العباسيون يلعنون معاوية والأمويين على المنابر في كافة الأقطار والأمصار الإسلامية، عملا بالسنة العربية المتبعة عبر التاريخ : كلما دخلت أمة لعنت أختها ، حتى يداركوا فيها جميعا ، دنيا وآخرة .

وفى الدولة العباسية تطور نظام الخلافة إلى نظام مماثل لنظام الفرس السياسي الذى كان يحكم به آل ساسان . وكان هذا النظام يقول بنظرية الحق الملكي المقدس ، فمن يحاول أن يتولى الملك من خارج البيت المالك ، يعتبر مغتصبا لحق غيره. وبذلك صار الخليفة العباسي يحكم بتفويض من الله، لا من الشعب. يقول أبو جعفر المنصور فى ذلك "إنما أنا سلطان الله فى أرضه" . فهدم بذلك أساس خلافة الاختيار فى عهد الخلفاء الراشدين . وأرسى بعد الأمويين خلافة القهر وحصرها فى آل البيت، وفى البيت العباسي دون البيت العلوى ، وفى البيت الهاشمي دون البيت الأموى. وحذا العباسيون حذو الأمويين من قبلهم فى تولية العهد لأبنائهم.

عد العباسيون أنفسهم وارثو بيت الرسول ، وأعطوا لأنفسهم الحق فى أن تكون حكومتهم الخلافية حكومة دينية تجمع بين السلطتين الزمنية والروحية . وصار الحكم فى الدولة العباسية استبداديا . فى يد الخليفة وحده، فوق أمراء البيت العباسي ، وأصحاب المناصب العليا . فهو مصدر كل قوة، ومرجع كل الأوامر المتعلقة بالدولة . وكل من سواه معه مجرد مستشار غير رسمى. وذلك النظام هو نفسه نظام الحكم الفارسى . ومثل أباطرة الفرس احتجب الخليفة العباسي عن الرعية، وأحاط شخصه بالقداسة والرهبة ، واتخذ الوزير والسياف ، تحوطه الأبهة والعظمة ، وينحنى أمامه الداخل عليه . ويقبل الأرض بين يديه ، وإذا سمح له بالقرب منه ، كان له شرف تقبيل ردائه، وهو شرف لا يناله إلا الرجال البارزون. وعاش الخليفة العباسي عيشة الأكاسرة ، وفى بلاطه أعياد هى أعياد الفرس القديمة : النيروز والمهرجان ، والروم ، وسواها.

فالخلافة العباسية كانت مثل الخلافة الأموية خلافة قهر ، ملكية ، وراثية استبدادية ، حرصت دائما على الاحتفاظ بولاية العهد ، لتظل الخلافة في البيت العباسي. ولأن الدولة العباسية قامت على مساندة الفرس،

فقد ساد فيها، في عهدها الأول على الأقل ، النفوذ الفارسي إلى عهد الرشيد. وكان المأمون الخليفة العباسي السابع من أم فارسية ، وتزوج أيضا من فارسية، فكان ظهور العباسيين كان شبيها بثورة فارسية أسفرت عن بعث جديد لحكم الأكاسرة ، وبغداد حاضرتها الجديدة .

ولأن الخليفة قد اتخذ مظاهر الاحتجاب عن الرعية ، فقد صار لا يؤم بنفسه الناس في الصلاة، ولا يقيم خطبة الجمعة ، مثلما كان يفعل الخلفاء الراشدون ، وبعض الخلفاء الأمويين.

ولقد حرص الخلفاء العباسيون ، خليفة بعد خليفة ، على ارتداء بردة النبي صلى الله عليه وسلم ، عند حضوره مراسم تولي الخلافة ، وعند حضوره الحفلات الدينية، تأكيدا لكونه نائبا عن الرسول في حكم المسلمين، وتأكيدا لحق العباسيين في وراثة الحكم، دون العلويين .

بل لقد صار الخليفة العباسي يلقب نفسه، توكيدا لسلطته الدينية أيضا، بلقب إمام ، وكان الشيعيون يطلقون هذا اللقب على أفراد من البيت العلوي . ومن قبل كان لقب إمام مقصورا في اللغة وفي المجتمع وفي العرف الديني على من يؤم الناس للصلاة . ولذلك حرص الخلفاء العباسيون ، الذين يستندون إلى نظرية التفويض الإلهي، على تقريب العلماء ورجال الدين الذين راحوا ينشرون بين الناس هذه النظرية .

—5—

في ظل خلافة القهر العباسية وطوال 98 سنة (750 — 847م) دار الصراع عنيفا ، بعد قيام الخلافة ، بين أربعة أحزاب سياسية : الحزب العباسى الحاكم باسم الأسرة العباسية ، والحزب العلوى متمثلا فى الفرس الطامعين فى السلطان ، والحزب العربى الساخط على العباسيين لاستمرارهم فى التمثيل ببنى أمية ، وحزب حركات الموالى (الفرس) الطامع في الاستقلال عن الحكم العربى . وتتمثل حركات الموالى فى : الراوندية، والمقنعية ، والخرسانية، وكلها كانت حركات فارسية.

ولم يتوقف العباسيون عن التنكيل ببنى أمية بالمطاردة والإبادة ، والتنكيل والقتل. وبرهنت هذه المطاردة وتلك الإبادة على شدة العداء بين أمية والهاشميين جميعاء، وكان هذا العداء أحد أسباب انصراف العرب عن العباسيين ، وكراهية العرب للعباسيين ، لاعتمادهم على الفرس ، وإيثارهم الفرس بالسلطة والمناصب دون العرب .

فقد كان الفرس يمالئون العباسيين ويسعون فى الوقت نفسه للقضاء على الدولة العباسية ، تحت راية العلويين تارة ، وراية حركات الموالى تارة أخرى . ولذلك قامت الفتن والثورات في البلاد الإسلامية وراح العباسيون ، وهم فى موقف الدفاع عن النفس، والاستشهاد بالخلافة ، وبالحكم ، وبموارد الخلافة ، يدافعون عن أنفسهم ضد هذه الفتن وتلك الثورات .

غنم العباسيون سعى العلويين فى الأمصار لتقويض دولة خلافة القهر الأموية ، وجنى العباسيون ثمار هذا السعى ، بمحالفة العلويين . فكلاهما هاشمي . وبتنازل ابن الحنفية زعيم العلوية عن الخلافة للعباسيين، لعدم ثقته فى قدرة العلويين على تولى أمور الخلافة ، بعد فشل حركاتهم السياسية كلها. طوال عصر بنى أمية .

وقد عبر أبو جعفر المنصور (الخليفة الثانى) عن هذا الفشل العلوى ، حين راح يعدد صور هذا الفشل موجها خطابه إلى الخرسانيين . (وكانوا أنصار الخلافة العباسية فى المشرق الإسلامى) من فوق منبر الهاشمية . قال:

"يا أهل خراسان . أنتم أنصارنا ، وأهل دعوتنا . ولو بايعتم غيرنا لم تبايعوا خيرا منا . إن ولد ابن أبى طالب تركناهم، والذى لا إله إلا هو — والخلافة . لم نعرض لهم بقليل ولا كثير . فقام فيهم على بن أبى طالب فما أفلح، وحكم الحكمين ، فاختلفت عليه الأمة ، وافترقت الكلمة . ثم وثب عليه شيعته وأنصاره فقتلوه ، ثم قام بعده الحسن بن على رضى الله عنه ، فوالله ما كان برجل (!!)، عرضت عليه الأموال (من معاوية) فقبلها . ودس إليه معاوية : إنى أجعلك ولى عهدى . فخلع نفسه . وانسلخ مما كان فيه وسلمه إليه (إلى معاوية). فلم يزل كذلك حتى مات على فراشه . ثم قام من بعده الحسين ابن على رضى الله عنه ، فخدعه أهل العراق والكوفة .. فأسلموه حتى قتل . ثم قام بعده زين العابدين بن على فخدعه أهل الكوفة وغروه . فلما أظهروه ، وأخرجوه ، أسلموه. وكان أبو محمد بن على قد ناشده فى عدم الخروج . وقال له : لا تقبل أقاويل أهل الكوفة . وناشده الله بذلك عمى داود فلم يقبل . وقتل وصلب بالكناسة . ثم وثب بنو أمية علينا (نحن العباسيين) فأماتوا شرفنا وأذهبوا عزنا . والله ما كان لهم عندنا ترة (ثأر) يطلبونها . وما كان ذلك كله إلا فيهم ، وبسبب خروجهم ، فنفونا من البلاد . فصرنا مرة بالطائف ومرة بالشام ، ومرة بالشراة . حتى ابتعثكم الله (أيها الخراسانيون) لنا شيعة وأنصارا . فأحيا الله شرفنا، وأعزنا بكم . وأظهر لنا حقنا، وأصار إلينا ميراثنا!! من نبينا صلى الله عليه وسلم . فقر الحق فى قراره. وقطع دابر القوم الذين ظلموا".

(مروج الذهب للمسعودى)

آثر العباسيون الفرس على العرب . وقلد العباسيون الفرس، فى مظاهر البلاط الساسانى الذى كان، وفى لباسهم ، واحتفالاتهم ، وأظهر الفرس الولاء للعباسيين، وساندوهم فى المشرق الإسلامى فى إقامة دولة، لكن الفرس فى جوهرهم، ومليوكهم المستتر تحت الأرض، كانوا يشايعون العلويين ، ويرونهم أحق بتاج الخلافة ، والوراثة لآل ساسان من جهة أمهم "شهر بانوه" ابنة يزدجر الثالث ، آخر ملوك الساسانيين . والفرس طوال

التاريخ كانوا يقدسون ملوكهم . والعلويون عندهم ، خاصة أبناء الحسين بن على من "شهر بانوه" يمثلون حق ميراث النبوة ، وحق ميراث آل ساسان معا، فاستحقوا عندهم أن يقدسوا .

ولذلك حين حاول أبو سلمه الخلال داعية الهاشميين العباسيين تحويل الدعوة إلى العلويين ، بعد القضاء على دولة بنى أمية . دس له المنصور (الخليفة الثانى) من قتله . وحين حمل الفضل بن سهل المأمون (الخليفة) على أن يولى عهده على الرضا، ويتخذ الخضرة شعار العلويين بدل السواد ، لم يلبث المأمون أن دس له من قتله بالسم . وحين حاول أبو مسلم الخراسانى، تحويل الفوز العباسى فى المشرق الإسلامى ، إلى العلويين دس له من قتله ، وحين تزعم عبد الله بن على عم الخليفة المنصور الساخطين من العرب، بادر المنصور بمحاربة أبى مسلم الخراسانى فقتله . ولقد قتل أبو مسلم فى حروبه ضد خصوم العباسيين فى عهد السفاح، والمنصور ستمائة ألف صبرا (جوعا وعطشا)!!

وبمقتل أبى مسلم الخراسانى ، تفجرت الفتن والثورات فى الدولة العباسية، ضد العباسيين : ثورة المجوسى سنباذ الخراسانى . وثورة المقنع الخراسانى ، وثورة الراوندية ، وثورة الخرمية ، وثورة الأفشين بالاشتراك مع المازيار، وثورة الزنادقة ضد الإسلام نفسه . وكلها ثورات كانت تحاول الانتقام لمقتل أبى مسلم الخراسانى، وفى الوقت نفسه تسعى للاستقلال بالمشرق الإسلامى تارة ، وتتذرع بنصرة العلويين تارة أخرى. وكلها ثورات هزمتها الخلافة العباسية ثورة بعد ثورة ، فتعود كل ثورة للكمون ثم تعود للظهور.

-6-

وطوال 98 سنة ، في عهد خلفاء القهر العباسيين العشرة الأول ، لم ينس العلويون العرب . حقهم في الخلافة ، منذ مقتل الحسين بن علي في كربلاء، بالدعوة دائما، وبالقوة ورفع السيوف أحيانا، وحين يأنسون من أنفسهم ضعفا يستكينون، مكتفين بلقب الإمامة، والقرابة من النبي ، مؤثرين العيش الهادئ والاشتغال بالتجارة ، منصرفون عن السياسة والحرب إلى الاشتغال بالدين . فعلوا ذلك في خلافة القهر الأموية ، وكرروا فعله في خلافة القهر العباسية ، وكان **محمد النفس الزكية** أول المتطلعين إلى الخلافة من العلويين ، في خلافة العباسيين . وفشل العباسيون في استرضاء العلويين بالقول اللين، والعطايا الجزيلة، امتنع محمد النفس الزكية عن مبايعة السفاح، بالخلافة ، وأحاط أهل المدينة بمحمد النفس الزكية . وأحاط أهل العراق بأخيه إبراهيم في العراق . وكان مطلبهما هو الخلافة .

ولم يكن من الحرب بد، وتواجه جيشان : جيش المنصور الكثير العدد والعدة، وجيش محمد بن الحنفية القليل العدد والأنصار ، وكانت الهزيمة ساحقة ، وقتل محمد النفس الزكية ، ثم تبعه أخوه في العراق ، وخاض الحربين معهما موسى بن عيسى ، عم المنصور ، وولي عهده . ولقد رجا المنصور أن يقتل عمه عيسى في هذه الحرب، كي يتمكن من تحويل ولاية العهد لابنه المهدي. لكنه عاد إليه حيا ومنتصرا .

وسكن العلويون إلى حين ، ثم عادوا إلى الثورة تحت راية الحسين ابن علي المطالب بالخلافة في ساحة الحرب، في عهد الخليفة الهادي . وكانت ثورته بمكة والمدينة وفشلت ثورته، وقبض عليه وحبس بدار جعفر بن يحيي البرمكي الثائر لعمه موسى بن عيسى ولي عهده، وبادر موسى بن عيسى بقتله بعد أن أعطاه الأمان.

وسكن العلويون إلى حين ، ثم عادوا إلى الثورة مطالبين بالخلافة في عهد الرشيد . وتزعم الثورة الأخوان يحيى وإدريس ابنا عبد الله . وبالتحذير والترغيب ، مال يحيى إلى الصلح ، فأرسل إليه الرشيد الهدايا والتحف، فقدم يحيى على الرشيد فاحتفى به، واستفتى الفقهاء في نقض الأمان فأفتوه . فحبسه في داره . وفر إدريس ، بعد صلح أخيه يحيى إلى مصر ، ثم إلى بلاد المغرب ، فالتف حوله البربر، وأدرك الرشيد أنه لا قبل له في إخضاع إدريس بحد السيف . ولذلك لجأ الرشيد إلى الحيلة ، فدس عليه داهية تودد إليه ، وسب عنده العباسيين فقربه إدريس، وعندئذ دس داهية الرشيد له السم فمات .

وانتظر أتباع إدريس أمة له حاملا ، حتى وضعت ولدا اسموه إدريس، وبايعوا الوليد بالخلافة فقامت دولة الأدارسة بالمغرب . وعندئذ أقطع الرشيد القائد إبراهيم بن الأغلب بلاد تونس ، فأسس دولة الأغالبة، لتكون حاجزا بين دولة الأدارسة والدولة العباسية ، وبين الرشيد والصغير إدريس.

وسكن العلويون إلى حين ، حتى كان عهد الخليفة المأمون. فثار عليه محمد الديباج بن جعفر الصادق العلوى ، قبل أن يولى المأمون عهده لعلى الرضا بن موسى الكاظم . وكانت ثورة محمد الديباج بمكة، وبايعه أهل الحجاز بالخلافة، وأرسل إليه المأمون جيشا هزم جيشه ، وأسره وعفا عنه. وعندئذ تزعم أبو السرايا ثورة العلويين ، فقاتله الحسن بن سهل وقتله. فقام مقامه "القاسم بن إبراهيم" وتزعم ثورة العلويين في الحجاز والكوفة ، والرى، وقزوين ، وطبرستان ، وبلاد الديلم، وطارده جيش الخليفة المعتصم حيث كان يقيم بمصر ، ففر إلى الحجاز ، ثم إلى اليمن ، واختفى في اليمن بين عامة الناس.

ولم يكن الصراع العباسى العلوى على الخلافة بين من بيدهم الخلافة ومن يطالبون بها قاصرا على الحرب . فوراء هذه الحرب كان شعراء علويون يوقدون نارها عن اعتقاد ، ويمدحون العلويين ويهجون العباسيين. وكان شعراء عباسيون يحرضون الخلفاء العباسيين على الحرب، في ملق ونفاق ، ويمدحون العباسيين ويهجون العلويين ، ويقودهم مروان ابن أبي حفصة ، وكان شاعرا نفعيا يسير في ركاب السلطان

العباسي وصاحب السلطان العباسي يمدح هذا وذاك ،ويهجو هذا وذاك طلبا للعطاء ، وكان من قبل شاعر مروان بن محمد، آخر الخلفاء الأمويين.

ووراء هذه الحرب ، كان لكل من العلويين والعباسيين علماء ومتكلمون يتحدثون عن الإمامة (الخلافة) وحق الإمامة ، بينهم فقهاء، وعلماء كلام، وبينهم أنصار السنة (العباسيون) العلنيون، وأنصار الشيعة (العلويون) العلنيون منهم والسريون . ولقد كان أحد أسباب نكبة الفرس البرامكة ، تلك العداء العباسي للعلويين وأكثرهم من الفرس، وخوف الرشيد من ركوب البرامكة أصحاب النفوذ في خلافته لموجات الثورات العلوية ، المطالبة لنفسها بالخلافة . كذلك كان الصراع بين الخليفتين العباسيين: الأمين، والمأمون ، صراعا بين العرب والفرس في حقيقته، أو أنصار السنة وأكثرهم من العرب ، وأنصار الشيعة وأكثرهم من الفرس ، وكان المأمون ابن الجارية مراجل الفارسية ، يميل إلى الفرس وإلى المذهب المعتزلي وإلى العلويين ، ويحتاج نصرة الفرس له بعد رحيل أبيه.

وقاد الصراع بين الأخوين قادة عرب سنيون من هنا ، وقادة فرس علويون من هناك ، ولقد دفع هذا الصراع ، على الخلافة ، بين الأخوين – الأمين العربي الأم، بل الخليفة العباسي الوحيد العربي الأم ، والمأمون الفارسي الأم، دفع الخليفة المأمون إلى مهادنة العلويين، وتعيين علي الرضا العلوي، وليا لعهده، إلى أن استقر له أمر الجلوس في إيوان الخلافة ببغداد، وعندئذ فقط أوعز المأمون بقتل وزيره ، ونصير علي الرضا : الفضل بن سهل ، ثم قتل علي الرضا ، بدس السم له في عنقود من العنب .

وجهد المعتصم بعد المأمون ، للهرب من هذا الصراع بين السنة والشيعة ، وبين العرب والفرس، وبين سخط العرب على الفرس أعوان الخلافة العباسية ، فأنشأ حرسا له (هو التركي الأم) من الترك، وأسند لهم مقاليد الدولة ، وقيادة الجيوش ، وبلغ عدد الجند الترك في جيش المعتصم خمسين ألفا، ونقل عاصمة الخلافة من أجلهم ، وحماية لنفسه ، ولأهل بغداد من بغداد إلى سامراء ، ومن هؤلاء القادة الترك : أحمد بن طولون .

وصار ولاته على الأقاليم من الترك ، وكان هؤلاء الولاة حريصين على الإقامة بالقرب من الخليفة ، وينيبون عنهم نوابا من الترك،

يقومون لهم ، وباسمهم، بأمور الولايات، من مصر إلى بلاد ما وراء النهر.

وراح العرب يتآمرون على حياة المعتصم نفسه، وحياة قادته الأتراك مثل: الأفشين وأشناس، ومن هؤلاء المتآمرين الثائرين العرب: عجيف بن عنبسه، القائد العربي الذى قهر ثورة الزط لصالح الخليفة المعتصم ، وكان مصير عجيف القتل بأمر المعتصم ، إثر انكشاف مشاركته في مؤامرة ضده.

ولقد أخمد ظهور العنصر التركي الصراع بين الفرس والعرب ، وبين العلويين والعباسيين إلى حين . واستأثر العنصر التركى بالأمر دون الفريقين . ولكن هذا الإخماد نفسه كان قهرا وقمعا من جهة، وسحبا للأرض من تحت أقدام العباسيين من جهة أخرى، فبدأ ظهور دول الأطراف المستقلة عن الخلافة وشبه المستقلة: الزيدية باليمن ، والطولونية فالإخشيدية ، بمصر والفاطمية ببلاد المغرب ، والصفارية ، فالسامانية ، فالغزنوية ، فالعلوية بطبرستان ، مع نهايات عصر الخلفاء العباسيين العشرة الأول من أبى العباس السفاح إلى المتوكل بالله . وكانت دولتان أخريان من دول الأطراف قد سبقتهما في الوجود هما دولتان : الأدراسة بالمغرب، والأغالبة بتونس، وكانتا قد قامتا فى عهد الخليفة الرشيد، ومن قبلهما كانت الدولة الأموية قد قامت في الأندلس فى عهد الخليفة الثانى أبى جعفر المنصور.

انقضى القرن الأول من عمر الدولة العباسية ، وخلفاء القهر العباسيون يحاولون المحافظة على الامبراطورية الأموية التى ورثوها من تخوم الهند إلى بحر الظلمات ، وتحقيق التوازن بين العرب والفرس والترك، وبين السنة والشيعة ، والمذاهب الأخرى المعبرة عن حركات الموالي . وكانت محاولات الخلفاء للإمساك بالعصا من الوسط ، والاستمرار فى إقامة التوازن ، تختل فى أيديهم تدريجيا جيلا بعد جيل ، وأدى هذا الاختلال إلى إقامة ثلاث دول مستقلة فى الطرف الغربى للامبراطورية العباسية ، وإلى سيطرة المنصر التركى على الخلافة والخلفاء والدولة العباسية بأسرها . فبدأ جسم الدولة العباسية فى التفكك والانفصال شرقا ، وغربا ،وشمالا، وجنوبا .

فمن عهد الخليفة (العاشر) الخليفة **المتوكل بالله** إلى عهد الخليفة (الثانى والعشرين) **المستكفى بالله** بدأت النهاية البطيئة للدولة ، ثم ازداد سرعة انحدار الخلافة العباسية ، والدولة العباسية ، حتى انحصرت الخلافة فى العراق ، وأجزاء قليلة من فارس تحيط بها ، وصارت سيطرتها على هذه المنطقة وحدها خاضعة لإرادة الترك ، ثم لإرادات إمرات الأمراء من الولاة والقواد، وزاد ظهور عدد دول الأطراف حول العراق شمالا وجنوبا، وشرقا، وغربا خلال 97 سنة.

وزخرت هذه الفترة من عمر الدولة العباسية بالحركات السياسية الثورية، وبالاتجاهات الدينية . والحركات السياسية الدينية فى وقت واحد، وأدت هذه الحركات بألوانها : إلى ازدياد عدد دول الأطراف المستقلة ، وشبه المستقلة ، وإلى انتشار المبادئ الشيعية ، وبخاصة مبادئ الإسماعيلية في : سواد الكوفة ، والبحرين ، وشمال العراق ، واليمن،

وبلاد الفرس . وإلى تمكن دعاة الإسماعيلية من إقامة الدولة الفاطمية ، والخلافة الفاطمية في المغرب أولا ، ثم في مصر ففلسطين فالشام فبلاد الحجاز ، وبلغ من نفوذ هؤلاء الدعاة أنهم خطبوا على المنابر في مدينتي الموصل وبغداد باسم الخلافة الفاطمية حينا من الزمن، وتحت سمع الخلافة العباسية وبصرها.

كذلك أدت هذه الحركات إلى ظهور ثورة الزنج ، وثورات الخوارج وحركات المعتزلة ، وظهور المذهب السني الأشعري ، وظهور داعية التصوف الإمام الغزالي ، وتطورت آراء المتصوفين ، المعتدلين منهم، والمغالين ، في نظر أهل السنة.

في تلك الفترة ، استقل العلويون الزيديون باليمن ، واستقل العلويون الإسماعيليون بالشمال الافريقي ، والشام ، والحجاز . ولم يستطع الخلفاء العباسيون في هذه الفترة مقاومة هاتين الدولتين الوليدتين إلى عهد البويهيين، الذين دعاهم الخليفة المستكفي بالله لدخول بغداد ، كي ينقذ الخلافة ، فابتلعوها، وابتلعوا معها في الحقيقة الخلفاء العباسيين التالين من بعده .

وفي تلك الفترة ، حدثت ثورة القرامطة ، وهم أيضا علويون إسماعيليون ، وكانوا مناوئين للعباسيين والفاطميين معا، وقد أحدثوا كثيرا من الفتن والاضطرابات في العراق ، والشام ، واليمن ، وجزيرة العرب بأسرها، وقضى على زعماء ثورتهم الثلاث واحدا بعد آخر بأيدي الزيديين، وأيدي العباسيين .

وفي تلك الفترة حدثت ثورات للخوارج بالموصل . ثورة **مساور الشاري** بالموصل ، وثورة **طوق الزهيري** ، وثورة **أيوب بن حيان**، وثورة **محمد بن يحيى الوراقي** . وثورة **هارون بن عبد الله** ، وثورة **محمد ابن عبادة** . وقضى الخلفاء العباسيون، بواسطة قادتهم الترك على هذه الثورات ثورة بعد ثورة .

وفي تلك الفترة حدثت ثورة الزنج ، وقد دامت هذه الثورة 14 سنة وأشاعت الرعب في البصرة ، وواسط، وبغداد ، وقام بها جماعة من عبيد افريقيا ، هربوا من سادتهم العرب والفرس والترك في القرى المجاورة ، ومن البؤس الذي يعيشونه ، فقوتهم أبدا قليل من الدقيق ، والتمر ، والسويق، وكانوا لا يتقاضون من الأجر شيئا، وأكثرهم كان

يشتغل بإزالة طبقة الملح من أرض العراق . وقاد هذه الثورة الفارسي : **علي بن محمد** ، وكان من أهالي الطالقان ، وأدعى أنه من نسل علي زين العابدين بن الحسين بن علي. ومع أنه شيعي فقد جهر بآراء الخوارج . وقد انتشرت جيوشه في العراق ، وخوزستان ، والبحرين ، ودامت الحروب بين العباسيين وبينهم من سنة 255 هـ إلى سنة 270 ، وكان عددهم قد بلغ 552 ألفا من العبيد الأفارقة .

وفي تلك الفترة ، قتل العباسيون المتصوفين : **الحسين بن منصور الحلاج** متهما بأنه أدعى الألوهية في عهد الخليفة (الثامن عشر) المقتدر، وقتلوا المتصوف **الشلمغاني** متهما بأنه أدعى الألوهية في عهد الخليفة (الحادي والعشرين) الراضي بالله .

وفي تلك الفترة توالى ، تباعا، نشوء دول مستقلة جديدة من دول الأطراف في المشرق ، والشمال ، والجنوب: الصفاريون، فالساماليون ، فالطولونيون ، فالحمدانيون، فالإخشيديون، فالغزنويون ، ولقد ورثت بعض دول الأطراف بعضها الآخر . فورث الصفاريون السامانيين ، وورث الغزنويون أيضا السامانيين. وورث الإخشيديون الطولونيين .

-8-

في عهد الخليفة الراضي بالله ، كان أمراء الدولة العباسية في المشرق يتصارعون على ما تحت أيديهم من إمارات عباسية ، وكان أقواهم في النهاية هو ركن الدولة بن بويه. وكان الراضي يستعين في إدارة شئون دولته بوزراء ضعاف، يبذلون له مالا كثيرا ليدفعهم إلى مرتبة الوزراء ، ولم يكن لهؤلاء الوزراء من هم، وقد دفعوا ما دفعوه للخليفة، سوى جمع المال ، وإهمال إصلاح شئون الدولة العباسية ، بسبب ازدياد نفوذ كبار القواد وتدخلهم في أمور الدولة.

وعندئذا استمال الراضي القائد الأمير ابن رائق ، أمير واسط والبصرة ، وسلمه مقاليد أمور الخلافة سنة 324 هجرية . بعد توليه للخلافة بعامين ، ولقبه بلقب "أمير الأمراء"، وصار بيده تولية الولاة وعزلهم، وعلت مرتبة هذا الأمير ، وخطب له على منابر الدولة العباسية.

ومنذ ذلك الحين نشأ عهد إمرة الأمراء في الدولة العباسية. واستمر هذا العهد عشر سنوات تفجر فيها الصراع بين ابن رائق والأمراء الآخرين ، على لقب أمير الأمراء وسلطته، في فارس والعراق ، ومصر ، والشام، طوال عهدي الخليفتين الراضي بالله ، والمتقي بالله، فصارا ليس لهما من الأمر شيء .

وكانت دولة بني بويه أقوى دول الإمارات بفارس . ولم يجد الخليفة المستكفي بالله بدا من استدعاء البهويهيين ليدخلوا بغداد . فدخلها معز الدولة البويهي في زي عسكري عام 334 هجرية .

وبادر معز الدولة ، وكان شيعيا ، بإهانة الخليفة المستكفي، وقبض عليه وسمل عينيه ، وأجلس المطيع بالله مكانه على عرش الخلافة، وحدد له ألف درهم في اليوم ، ثم حدد له إقطاعات يسيرة يعيش منها ، وعين له كاتبا يشرف عليها ، وعين ابنه بختيار أميرا للأمراء ، بعد عشر سنوات من دخول بغداد . ومنذ ذلك الحين صار الخليفة العباسي خليفة

بالاسم ورمزا دينيا ، من آل بيت الرسول ، ودامت سيطرة البويهيين على بغداد، والخليفة في بغداد 113 سنة .

وكان بنو بويه غالية، فلم يعترفوا بحق الخليفة العباسي السني في زعامة المسلمين، ولذلك لم يتركوا له سوى ذكر اسمه في الخطبة ، ونقشه على السكة، لأغراض سياسية، غايتها أن يعطي البويهيون حكمهم صبغة شرعية في بلاد سنية، وأن يحتفظوا بمراكزهم أمام جمهور سني ولولا خوفهم من ضياع نفوذهم السياسي، أمام هذا الجمهور السني لحولوا الخلافة إلى العلويين. ولذلك اكتفوا بتقوية نفوذهم ، وسلب السلطة ، في الوقت نفسه، من الخلفاء العباسيين ، فصارت خلافتهم أمرا دينيا اعتقاديا ، وصار الخليفة رئيسا للإسلام ، ليس له سلطة ملك، ولا سلطان ، ولا خليفة.

وحظي البويهيون من هؤلاء الخلفاء بألقاب تذكر مع أسمائهم في خطب الجمع، وتنقش على السكة، وكلها تشير إلى لقب أمير وملك، له نفوذ كنفوذ السلطان ، والخليفة . وصار الخلفاء ألعوبة في أيدي ملوك بني بويه، يجلسونهم على العرش متى شاءوا ، ويعزلونهم عن العرش متى أرادت لهم أهواؤهم، ويقدمون لهم في الوقت نفسه الاحترامات في الحفلات ، وعند استقبال السفراء ، ويضعون أمامهم مصحف عثمان إظهارا لسلطتهم الدينية ، ويلبسونهم بردة الرسول ، ويخاطبونهم بلقب أمير المؤمنين . فالناس كانوا قد صاروا يعتقدون أن الخليفة العباسي هو حقا ظل الله على الأرض ، وإمام الحق، برغم ضعف الخلافة في عصر إمرة الأمراء وبني بويه ، فقد استمر الخلفاء العباسيون يولون العهد لأبنائهم، في احتفالات رائعة ، إذا سمح لهم البويهيون بمن يولونه العهد .

وحدث أن البساسيري البويهي، أحد قواد بنويه الأتراك، وكان قد استبد بالسلطة ، في عهد الأمير البويهي الملك : أبو نصر خسرو (فيروز الرحيم)، راح يدعو على منابر بغداد، نحوا من سنة للخليفة المستنصر الفاطمي الشيعي ، وعندئذ استنجد الخليفة العباسي السادس والعشرون : القائم بأمر الله بطغرل بك السلجوقي . فزحف على بغداد، وانتصر على البساسيري وقتله ، وأنهى صفحة البويهيين بالعراق . وبذلك تحولت تبعية الخلافة الفعلية من البويهيين الشيعيين إلى السلاجقة السنيين .

لبى طغرل بك السلجوقي الدعوة ، وتوجه الخليفة القائم بـأمر الله في بغداد ممثلا له ، وملكا على المشرق عام 451 هـ. وقضى على ثـورة البساسيري، داعية الفاطميين في العراق ، وهزم جيشه وقتله، وحمل رأسه إلى بغداد. وحل الأمراء السلاجقة محل الأمراء البويهيين المقيمين ببغداد .

وبقيت للخليفة موارد إقطاعاته المقررة ، التي كان يديرها لـه وزيره ، وكاتب الإنشاء، وبقي له ذكر اسمه في الخطبة ، ونقشه على السكة ، وأخذ يقضي وقته هو ومن بعده في ترميم القصور .

وكانت معاملة السلاجقة السنيين للخلفاء العباسيين أحسن بكثـير من معاملة البويهيين الشيعيين لهم.

وكان السلاطين السلاجقة يرسلون إلى الخلفاء العباسيين كثيرا من الهدايا النفيسة ، ويتلقون منهم التفويض سلطانا بعد سلطان، في حكم البلاد والعباد.

ودامت هذه المودة بين السلاجقة والخلفاء طوال العصر السلجوقي الأول إلى عام 485 هـ 1092، إلى أن جـاء عصـر سـنجر السـلجوقي وإخوته وصراعهم على السلطان والممالك ، وانقساماتهم وحروبـهم مـع بعض البعض ، ودام هذا العصر سبعا وستين سنة ،والخلفاء لا دخل لـهم بصراعهم، وحروبهم، ولا ينشرهم الفزع في البـلاد، ولايبـالون بغـزو الصليبيين للبلاد الإسلامية في الشام.

وحدث أن دار قتال بين السلطان السلجوقي محمود بن محمد بـن ملكشاه سنة 521 هـ والخليفة العباسي التاسع والعشرون المسترشد بـالله، لأن الخليفة تجرأ وقاد بنفسه جيشا ضد خصمهما "دبيـس بـن صدقـة" ، وهزمه هزيمة ساحقة، وفي هذا القتال بين الخليفة والسلطان محمود هـزم الخليفة المسترشد ، لكنهما مالبثا أن تصالحا.

وفي عهد السلطان مسعود اغتال الباطنية الخليفة المسترشد بالله بمدينة مراغة سنة 529 هجرية، ثم اغتالوا ابنه الخليفة الراشد من بعده عام 530، وآلت الخلافة إلى الخليفة المقتفي بالله.

وانتهى عصر السلاجقة على يد شاهات خوارزم عام 552 هجرية وانتهت مع نهايتهم تبعية الخلفاء العباسيين للسلاجقة في عهد الخليفة المقتفي. فقد دعا الخليفة الرابع والثلاثون الناصر بالله أبو العباس أحمد الخوارزميين ليحرروا الخلافة والخلفاء من سيطرة السلاجقة ، فراحت ضربات الخوارزمية تتوالى على رأس دولة كانت فتية يوما، هي الدولة السلجوقية، وورث الخوارزميون عرش الامبراطورية السلجوقية من جبال أدوال إلى الخليج العربي، ومن جبال السند إلى حدود الفرات، عدا ولايتي فارس وخوزستان. ودامت هذه الامبراطوية نحوا من مائة عام ، إلى أن قضى عليهم ، وعلى الخلافة العباسية، في بغداد، اجتياح المغول للشرق الأقصى ، ووسط آسيا ، وغربها إلى الشام.

ولقد ارتكب الخليفة الناصر بالله خطأ لا يغتفر ، فحين رأى الخوارزميين يوشكون أن يحلوا محل السلاجقة ببغداد، بعث برسول إلى امبراطور المغول "جنكيزخان" يدعوه إلى تحرير الخلافة العباسية والخلفاء العباسيين من الخوارزمية وفرح جنكيز خان بهذه الدعوة ، فانتظر حتى سيطر على الصين وما يليها غربا . ثم زحف إلى وسط آسيا ، قاصدا بغداد، فدمر كل الدول ، والدويلات ، والأتابكيات في طريقه . ودمر في النهاية الخلافة العباسية ، وقتل سلفه هولاكو الخليفة العباسي السابع والثلاثين المستعصم بالله سنة 656 هجرية 1258 ميلادية وهو وأهله ومن حوله .

فى تلك الفترات العاصفة اشتدت حركة القرامطة ، برغم مـــالحق بهم مرارا من هزائم فى عهد البويهيين . وكان الخلفاء الفاطميون يدعمـون حركتهم الشيعية الإسماعيلية بالمال وبالتخطيط.

وفى العهد العباسى السلجوقى بدأت نهاية القرامطة . وكانوا قـــد سيطروا مددا متفاوتة على جزيرة العرب ، ومدنا بالشام وجزرا بـــالمحيط الهندى ، والخليج العربى، والبحر المتوسط. وكانت نهاية القرامطــــة فـى موقعة الخندق بشمال الإحساء ، على يد السينين من العرب والسلاجقة عام 470 هجرية 1078 ميلادية . وانتهت دولة القرامطة التى ظلت ، أكثر مـن قرنين من الزمان مصدر رعب وفزع فى المشرق الإسلامى كله .

ولا تزال آثار هؤلاء القرامطة باقية إلـــى اليـوم فــى البحريـن وعمان، وفى تعاليم أتباع أغاخان ، وبخاصة العمــــاليين منـهم . وكــان للقرامطة آراء فكرية، وكتب ، وكانت لهم قوات برية وبحريــــة . وكــان القضاء عليهم فى عهد الخليفة الثامن والعشرين المستظهر بالله .

*

وفى تلك الفترات نشأت مذاهب وحركات سياسية ودينية أخــرى منها الحركة الدرزية فى الشـــام ، والنصيريــة والنزاريـــة فــى فـارس وخراسان، والشام ، والطيبية فى اليمن، والحشاشين فى جنوبــــى قزويـن والشام وفارس . وكلها حركات شيعية ، كانت تتوسل فى النهاية بالخلافات العقائدية للقضاء على الدولة العباسية ، وما تمثله من حكم أســـرة عربيــة لشعوب وسط آسيا وغربها ، وشعوب الشمال الافريقى ، ولقد لجأت هـــذه الأسرة العباسية العربية، مثلما لجأت الأسرة العلوية العربية ، إلــى اتـهام دعاة الانفصال ومثيرى الخلافات العقائدية بالشعوبية .

وفى الحقيقة فقد كان هؤلاء وهؤلاء يهدفون فى الجوهر المعلـن ، وغير المعلن إلى الاستقلال والانفصال . ويقعون فى أخطار الاحتلال لمـــا

حولهم ومن حولهم ، دعما لهذا الاستقلال ، وذلك الانفصال ، فوقع العـــالم الإسلامي كله ، طوال فترات الخلافات العباسية الفارسية منها ، والتركيـة، والبويهية ، والسلجوقية ، في دوائر مفرغة ، ملأى بالصراع وبـــالثورات وبالحروب وبجعجعات الدعاة، وخرافات القصاصيين، وأكاذيب السياســيين من هؤلاء الدعاة وأولئك القصاصيين، إلى أن قضى المغول عليهم جميعـا، في اجتياح تاريخي عاصف.

ومن الغريب والعجيب ، أن يمد مماليك مصر أيديهم إلى الخلافـة العباسية المنهارة ، ويأخذوا أبناء من أبناء الأسرة العباسية وينصبوا منـهم شخوصا للخلافة ، وينالوا منهم البركات ، والتتويجات ، وهم الذين ضربوا المغول والتتار المتحالفين معهم ضربات قاصمة في الشام، أوقفـت مدهـم كله في الشام، وبعيدا عن جزيرة العرب، والشمال الافريقي، عدد هــؤلاء الخلفاء عشرة خلفاء إلى أن اجتاح الأتراك العثمانيون العـالم المملوكـي ، والشمال الافريقي بأسره ، وحملوا عبء الوقــوف وجـها لوجـه أمـام الامبراطوريات المغولية.

الفصل الثاني

نظرية الخلافة

عند الفرق الإسلامية والفلاسفة المسلمين

— ا —

عند الشيعة ، والزيدية ، والخوارج ، وأهل السنة أيضا ، تعني كلمة الخلافة ، وظيفة الإمامة للمسلمين، أي أن الحكم الخلافي ديني ودنيوي معا، وحكم الخليفة روحي وزمني في آن ، إذا لم تكن خلافته خلافة قهر.

والخلاف بين هذه الفرق الكبرى في التاريخ الإسلامي ، يكمن في أن كل فرقة تريد الإمامة ، أي الخلافة، لنفسها. وعلى طريقتها الاعتقادية هي. وليس على طريقة أخرى سواها ، وبشروطها هي لا بشروط غيرها. وهو خلاف يسقط فكرة الخلافة نفسها بعد الخلفاء الراشدين.

*

فالشيعة ، على كافة مذاهبهم ، يرون أن الخلافة أو الإمامة ليست من مصالح العامة ، التي تفوض إلى نظر الأمة ، وأنها ركن الدين وقاعدة الإسلام ، وأنها وراثية (بعد رسول الإسلام) لعلي بن أبي طالب وذريته إلى يوم الدين. وهذه الذرية العلوية ، هي التي تعين الإمام من بين رجالها، ليكون خليفة وإماما للمسلمين.

والإمام عند الشيعة معصوم من الكبائر والصغائر معا، وعلى الأمة كلها أن تلتزم له بالسمع والطاعة. والشيعيون بهذا الاعتقاد، وجلهم فارسيون، يكشفون عن نزعة فارسية تقول بالملك الوراثي للحكم، ويرون أن الخلافة قد أخطأت طريقها بعد النبي (صلى الله عليه وسلم) إلى علي ، وأن أبا بكر وعمر وعثمان (رضه) قد أخذوها من علي بغير حق، فعلي هو الوصي لرسول الإسلام ، بل إن بعض فرق الشيعة يفضلون عليا على محمد، وبعضها ، مثل "الكيسانية" يقول (والعياذ بالله مما يقولون) بألوهية إمام آل البيت ، أي بيت علي ، وبعضها يقول بأن أي إمام علوي هو بذاته شخص مقدس!!

والفرقة الشيعية الوحيدة المعتدلة ، والأقرب إلى أهل السنة والجماعة، هى فرقة "الزيدية" فهى فرقة تكتفى بجعل منزلة الأئمة أفضل من منازل كل الناس ، وفوقهم، ودون منزلة رسول الإسلام ، بل إن الزيديين يجيزون إمامة المفضول ، على إمامة الفاضل ، أى من غير ذرية على ، مثل أهل السنة (فى مرحلة تاريخية متأخرة) على أن يختار أهل الحل والعقد (أى الصفوة) هذا المفضول إماما لهم، حتى ولو لم يكن قرشيا، بشرط أن يكون هذا المفضول ، ورعا ، وتقيا، وعالما، وسخيا فى العطاء طبعا (هل يفترض هذا الشرط غناه الشخصى أو تصرفه فى بيت المال العام على هواه؟).

ولقد وصل عدد الفرق الشيعية إلى أكثر من اثنتين وسبعين فرقة، يكفر بعضها بعضا ، وتضطهد كل فرقة منها أتباع الفرق الشيعية الأخرى، وكافة الفرق غير الشيعية أيضا. وكان الشيعة "الباطنيون" من أخطر هذه الفرق الشيعية المكفرة للآخرين من الأمة بأسرها ، الشيعيين منهم وغير الشيعيين. والشيعة "الباطنيون" هم المعروفون فى التاريخ الإسلامى باسم "الحشاشين" فقد كانوا يعتقدون أن أئمة الشيعة الباطنية يتلقون فيضا إلهيا من المعرفة ، وأن معرفتهم فوق مدارك الناس المحدودة بالزمان والمكان، وأنه لا يلزم أن يكون الإمام ظاهرا معروفا ، فيصح أن يكون خفيا مستورا، ومع ذلك تجب طاعته (فيما ينقل عنه)، ويعتقدون أن الإمام الباطنى ليس مسئولا أمام أحد من الناس ، وليس لأحد من الناس أن يخطئه أو يعارضه ، أو يحاوره ويجادله.

*

والخوارج ظهروا أول ما ظهروا من القبائل الربعية العربية ، فى جيش على فى موقعة صفين ، وصار شعارهم منذ قبولهم ، وقبول على للتحكيم تحت ضغطهم: "لا حكم إلا لله" (الشعار نفسه تردده نحل الجماعات الإسلامية فى زماننا). ولقد حكم الخوارج على أنفسهم بالذنب بعد فشل التحكيم، وتابوا عنه وأنكروه وطالبوا عليا بأن يحكم على نفسه أيضا بالذنب، والتوبة عنه وإنكاره. وأخذوا يقاتلون عليا بعد أن كانوا يكتفون بمجادلته فى حدة وعصبية ، شأن المتعصبين جميعا من أصحاب العقائد ، الذين يعتقدون أنهم وحدهم على الطريق الحق ، وأن وجهة نظرهم فى الدين هى الصراط المستقيم ، ومن حاد عنه فقد كفر، ولقد استهوتهم فكرة

التبرؤ من عثمان ، ثم من على، وهما من خلفاء النبوة ، فواصلوا تبرؤهم من خلفاء القهر من بنى أمية ، وخلفاء القهر من العباسيين.

ولقد امتد هذا الصراع بين الخوارج وعلى والأمويين بعد على، والعباسيين بعد الأمويين ، نحوا من ثلاثمائة عام، وكان صراعا داميا سيق فيه للذبح فقراء هؤلاء وهؤلاء ، متعصبين كانوا أو غير متعصبين.

والخوارج كانوا يرون أن الخليفة الإمام المختار من الأمة، يستمر إماما للأمة ، ما دام قائما بالعدل ، مقيما للشرع ، مبتعدا عن الخطأ، فإن حاد بخطأ لم يتب عنه وينكره ، فالويل له، ويجب عندئذ عزله ، أو قتله ، وكانوا يرون أن الخلافة فى الشرع (شرعهم طبعا) جائزة لا واجبة ، فالناس إذا لم يكونوا بحاجة إلى خليفة ، وكانوا قادرين على تنظيم أنفسهم ، وتدبير أمورهم، بأنفسهم بدون خليفة ، فليسوا ملزمين شرعا بأن يكون لهم خليفة، ولا يجب عليهم اختيار خليفة إماما إلا إذا دعت إلى ذلك مصلحة عامة، وحاجة ضرورية ماسة.

وللخوارج. مثل الشيعة والفقهاء، وعلماء الكلام، آراء أخرى فى مجال الاعتقادات ، ليس هنا مجالها.

*

وجمهور جماعة المسلمين ، ساسة وفقهاء، من المعروفين بأهل السنة، أخذوا حيال قضية الخلافة ، بسياسة وفكر الأمر الواقع، المتغير، حين تغلب الأمويون على الخلافة فى حياة على ، وحين نقض معاوية عهدا للحسن بن على ، فلم يترك الأمر شورى من بعده، وفرض البيعة لابنه يزيد، وحين تغلب العباسيون على الخلافة بحد السيف بعد الأمويين ، وحين أعلن الشيعة الفاطميون الخلافة بحد السيف فى مصر والشام ، وشاركوا العباسيين فى الخلافة ، فكانت هناك خلافتان فى العراق، ومصر، وحين أعلن الأمويون الخلافة الأموية مرة ثانية فى الأندلس والمغرب، فشاركوا العباسيين فى الخلافة ، فكانت خلافتان فى العراق والأندلس.

ولقد انقسمت آراء فقهاء أهل السنة ، بسبب تعدد الخلفاء، وراحوا يتناقشون حول : هل يجوز اجتماع خليفتين فى وقت واحد ، فتتفرق بذلك وظيفة الإمامة الروحية ، على الأقل فى الأمة الواحدة. وقبل بعض الفقهاء تعدد الخلفاء لاتساع أقطار الأمة، وتغلب حكام الأطراف على أقطار الأطراف. وأدان بعض الفقهاء هذا التعدد، وغلبوا على أمرهم بسياسة

الأمر الواقع، المتغير. ونسى هؤلاء وأولئك، أن هذه الخلافة أو تلك ، هي خلافة قهر قرشية وراثية ، وقد جمعت باطلا بين السلطتين الزمنية والروحية.

ونسى هؤلاء وأولئك ، أن هؤلاء الذين حكموا دولا بأطراف العالم الإسلامي، من سلاطين ، وملوك ، وأمراء ، قد جمعوا بدورهم ، مع أنهم لم يعلنوا أنفسهم أئمة أو خلفاء، بين السلطتين الزمنية والروحية ، وفق مذاهبهم المتغلبة الشيعية أو السنة في وسط آسيا ، مثلما حدث في المغرب الكبير وجنوب الجزيرة.

*

وسياسة القبول الفقهي لفقهاء أهل السنة ، بالأمر الواقع ، المتغير ، هي نفسها التي قبلت طرازا آخر من الخلافات القهرية ، غير القرشية، من الموحدين، والحفصيين، والمرينيين، والعثمانيين، الذين تلقبوا بلقب أمير المؤمنين مثلما تلقب بها خلفاء الشورى، وخلفاء القهر القرشيين السنيين أو الشيعيين. فبوركت من الفقهاء خلافات قهر غير قرشية ، فلابد للناس من إمام يقيم بالناس صلوات الجمع، ويجمع منهم الزكوات، ويحمي الثغور ، ويفصل بين الناس في الخصومات ، بتعيين القضاة ، وتوحيد الكلمة ، وتنفيذ أحكام الشرع، ولم الشعث ، وجمع المتفرق ، ويقيم المدينة الفاضلة (!!!) التي حث الإسلام على إقامتها . وسقط بما قالوه ، في مسيرة التاريخ شرط القرشية في الإمامة والخلافة . وبقيت لها شروط البيعة والشورى ، والعدالة. فهل بقيت هذه الشروط حقا في خلافة القهر ، قرشية كانت أو غير قرشية؟

لقد فقدت "البيعة" معناها في عصور خلفاء القهر جميعا، لأنها صارت منذ العهد الأموي وراثية ، يجبر فيها الناس على البيعة ، والطاعة، والبيعة من أهل الحل والعقد أولا ، من الفقهاء ، والأعيان، ثم من سائر الناس .

ولقد اخترع الحجاج الثقفي في أخذ البيعة للخليفة الأموي ، أن يقول الناس وهم يبايعون : "عبيدي أحرار ونسائي طوالق، إن خرجت عن طاعة الخليفة مطلقا". ولقد منع أبو جعفر المنصور "العباسي" الإمام مالك أن يفتي الناس ، بأنه ليس لمستكره (على البيعة) يمين ، ولا طلاق لمكره، حين اتهم الناس أبا جعفر بأنه قد أخذ البيعة كرها ، حتى لا يكون ذلك

سبيلا لتحلل الناس من بيعتهم للخليفة، وتمردهم على القسم الذى يقول: عبيدى أحرار ، ونسائى طوالق.

ولقد فقدت "الشورى" فى خلافات القهر معناها ، فلكى تكون ثمة شورى فى أمور الحكم كلها، فلابد أن يكون الاختيار للخليفة الحاكم شوريا، أى اختياريا، فلا يمكن أن يجتمع معا، كون الخلافة شورية، وكونها وراثية ، وبحد السيف ، فالوراثة وحد السيف نقيضان للشورى والاختيار الحر.

ولعل أبلغ ما قيل فى خلافة القهر ، ما قاله الحسن البصرى، فى حكم معاوية: "أربع خصال. فى معاوية ، لو لم تكن فيه إلا واحدة لكانت موبقة (أى مهلكة): خروجه على هذه الأمة بالسفهاء حتى ابتزها (أى الخلافة) بغير مشورة منهم ، واستخلافه يزيد (ابنه) وهو سكير خمير ، يلبس الحرير ، ويضرب بالطنابير ، وادعاؤه زيادا، وقد قال النبى : "الولد للفراش وللعاهر الحجر"، وقتله حجر بن عدى. ولقد قال عمر بن الخطاب فى وجوب أن تكون الخلافة عن مشورة واختيار : "من بايع رجلا بغير مشورة المسلمين فلا يبايع هو ولا الذى بايعه".

ولقد فقدت "العدالة" معناها فى خلافات القهر ، فالعدالة تتطلب من الحاكم أنواعا من العدالة : أن يكون هو عدلا فى ذاته ، لا يؤثر قرابة ، ولا يقدم أحدا لهوى أو محبة ، ولا يؤخر أحدا لبغضه له، وأن يولى الأمور لأهل العدالة ، والرفق بالرعية ، وأن يعامل الأعداء بالعدل ، فالعدالة تعم ولا تخص ، وأن يطبق العدل على الجميع ، أغنياء، وفقراء ، وأقوياء، وضعفاء، ولاة وغير ولاة.

*

وفقهاء الجماعة لهم آراء مختلفة فى الحاكم ، خليفة كان أو غير خليفة ، إذا خرج عن شروط الحكم ، قرشيا أو غير قرشى ، وهى البيعة، والشورى ، والعدالة ، فمالك والشافعى ، وابن حنبل، يسقطون الخلافة النبوية، أى خلافة الدين والدنيا ، أى خلافة الجمع بين السلطتين الزمنية والروحية ، عن خلفاء القهر، والحاكمين غير الخلفاء، فملكهم ملك دنيوى فحسب، وإن ارتدى عباءات الخلافة ، فهم مستخلفون فى الأرض، يخلفون حكاما قبلهم سابقين ، وليسوا خلفاء نبوة. وذلك يعنى فيما يومئون إليه ويشيرون ، أن خلافة الدين والدنيا ، والجمع فيها بين السلطتين الزمنية

والدينية مقصورة فحسب على خلفاء النبوة الراشدين، وليست حقا لأى حاكم آخر.

ومالك والشافعى وابن حنبل يوجبون الطاعة للحاكم ، والمتغلب ، حتى ولو كان غير قرشي ، وحتى لو كان ببيعة إكراه ، أو بلا بيعة ، ولا يأخذون بالشورى بشرط واحد ، أن يقيم هذا الحاكم العدل فى الرعية فإذا لم يقمها ، فعلينا أن ندعو لهم بالتوبة ، وندعو لأنفسنا بدفع مضرتهم عن الأمة، اللهم إلا إذا أمروا بمعصية ، حتى لا تكون الفتنة ، ويكون التفرق، وتمزق الأمة، وقتل المسلمين للمسلمين ، فيما نسميه اليوم بالحروب الأهلية.

* * *

إلى القرن الرابع الهجري، العاشر الميلادي ، تجنب الفقهاء ، والفلاسفة والأخلاقيون ، الخوض في مسألة الخلافة نظريا، وعمليا ، تاركين الحديث فيها للفرق والطوائف الإسلامية المتصارعة ، والمطالبة بالحكم لنفسها ، من القرشيين وغير القرشيين ، ومن العرب وغير العرب. تجنبوا الحديث في مسألة الخلافة في عصر الدولة الأموية ، وفي العصر الفتي الأول للدولة العباسية . ولكنهم بدأوا الحديث في مسألة الخلافة من الوجهتين النظرية والعملية ، في عصر انحلال الدولة العباسية ، وهو العصر الذي بدأ باغتيال الخليفة العباسي العاشر المتوكل على الله. وهو عصر استمر أربعة قرون تقريبا ، على حين لم يستمر العصر العباسي الفتي سوى مائة وعشرين سنة .

ومن تحدث في مسألة الخلافة كان أكثرهم من فقهاء المسلمين ومؤرخيهم . فقد فقد الخلفاء سطوتهم . وفقدت الخلافة هيبتها ، وصارت خلافة اسمية ، منذ أن سيطر عليها الخلفاء البويهيون ثم السلاجقة .

وظهر الحديث في موضوع الخلافة في عهد السلاجقة ، وكانت أطراف الامبراطورية العباسية ، قد تقاسمها أصحاب البلاد في هذه الأطراف، أو جيرانهم وكانت الشعوبية قد نجحت في أن تفرض نفسها فرضا على دولة الخلافة الإسلامية الموحدة على سطح الأرض، والبراكين من تحتها تغلي .

وفريق من الفلاسفة والأخلاقيين الذين تأثروا بعلوم اليونان ، وفلسفة اليونان، وبخاصة فلسفة أرسطو وأفلاطون، تحدثوا في موضوع الخلافة الإسلامية. وأول فيلسوف مسلم تحدث في هذا الموضوع كان الفارابي ، القادم إلى حلب من وسط آسيا ، والذي عاصر سيف الدولة الحمداني سيد حلب ، واتصل به اتصالا وثيقا .

وجاء حديث الفارابى عن الخلافة الإسلامية ، متأثرا بفلسفة أفلاطون فى جمهوريته ، فتحدث عنها نظريا ، كدولة تعتبر مثلا أعلى عند الفلاسفة ، وقد أفرد فى كتابه "آراء أهل المدينة الفاضلة" ، بابا عن "القول فى العضو الرئيسى"، استغرق إحدى عشرة صفحة ، والعضو الرئيسى فى مدينته الإسلامية ، هو فى العرف الإسلامى الخليفة والإمام ، وكلاهما وجهان أو لقبان لرئيس واحد.

وكان حديث الفارابى عن هذا الرئيس حديثا نظريا ، فالدولة عنده تشبه نظاما متعدد الدرجات ، والدولة المثالية فى نظره يشرف عليها زعيم، إمام أو خليفة ، أو هما معا فى شخص واحد، لكنه زعيم يعرف ما هى السعادة الحقة ، زعيم يهدى الإنسان إلى هدفه ، فبدون هذه الهداية لا يستطيع الإنسان أن يهتدى ، أو يصل إلى هدف .

ورأى الفارابى فى هذا الموضوع رأى نظرى ، لا ينطبق على الخلافة إلا من الناحية النظرية فلسفيا ، ومن وجهة النظر دينيا . متجاهلا الحالة السياسية التى كانت ترين على العالم الإسلامى فى زمانه الذى يعيش فيه، وغافلا عن تاريخ الخلافة ، وأحوال الخلفاء (الزعماء) منذ عصر الخلافة الأموية .

وإخوان الصفاء أبدوا وجهة نظرهم النظرية فى مسألة الخلافة ، فقالوا إن الملوك خلفاء الله فى الأرض، وإن الملك (الخليفة) حارس الدين، وحارس الرعية . ويحملها على الإذعان لأحكام الدين ونواهيه، وهى نظرة تتفق مع النظرية الإسلامية العامة السائدة عن الخلافة .

ونظام الملك وزير السلطان ملكشاه السلجوقى ، تناول موضوع الحكومة الخلافية ، فى كتابه سياسة نامه ، وقد كتبه فى أواخر القرن الخامس الهجرى ليبحث مسألة إعداد الحكام ، وإدارة الدولة .

وشهاب الدين السهروردى ، الفيلسوف الأخلاقى الذى عاش فى هذا القرن نفسه ، تأثر بما كتبه أفلاطون فى جمهوريته عن الزعيم (الخليفة).

ونصير الدين الطوسى العالم الشيعى ، الذى عاش فى القرن السادس الهجرى ، الثالث عشر الميلادى ، والذى دخل فى خدمة التترى هولاكو، وحثه على إزالة الخلافة العباسية ، وصحبه فى حصاره لمدينة بغداد سنة 566 هجرية 1258 ميلادية ، والذى كان من أبرز الكتاب العلماء

الذين خلفوا لنا مؤلفات في الدين والفلسفة ، والرياضة والفلك ، لم يزد في وصفه للإمام الخليفة ، كحاكم مثالي ، في كتابه "أخلاقي ناصري"، عما فعله أفلاطون وأرسطو من قبله ، والفارابي من بعدهما . وهو وصف نظري . لم يرع تاريخ الخلافة والخلفاء ، ولم يتوقف عند الجانب العملي في الخلافة .

وابن خلدون عالم الاجتماع والمؤرخ ، والذي عاش إلى أوائل القرن التاسع الهجري ، الخامس عشر الميلادي ، رأى أن الخلافة تطورت وتحولت ، منذ العصر الأموي ، عما كانت عليه في صدر الإسلام، ولم يكن عنده من بأس في أن يكون الخليفة من أصحاب العصبية ، الأموية أو العباسية ، أو أية عصبية أخرى ، أيا كانت جنسية هذه العصبية ، قرشية أو غير قرشية ، فالإسلام في جوهره لا يفرض هذه العصبية القرشية على المسلمين .

وانسجم ابن خلدون برأيه هذا مع روح عصره تماما ، فقد رأى أن الخليفة العباسي الذي آل أمره إلى أن يكون خليفة بالاسم ، ورمزا للإمامة، قد صارت به الخلافة خلافة صورية ، حين فقد عصبيته التي يستند إليها . ولذلك قرر ابن خلدون نظريته وهي أن الخليفة يجب أن يكون من أهل العصبية المطلقة .

وبهذه النظرية اختلف ابن خلدون مع جمهور السنة في زمانه الذين كانوا يرون حصر الخلافة في قريش ، واختلف مع الشيعة الذين يريدون قصر الخلافة أو الإمامة في أسرة الرسول ، بل في بيت علي وأبنائه من بعده ، واختلف مع الخوارج الذين كانوا يرون أن الخلافة حق لكل عربي حر ، مسلم ، عادل ، واختلف مع المعتزلة الذين قالوا إن الإمامة اختيار من الأمة، سواء أكان المرشح المختار قرشيا أم غير قرشي. واختلف مع ابن حزم الذي عاش في القرن الخامس الهجري ، الحادي عشر الميلادي، والذي جعل القرشية شرطا أساسيا أول في الإمامة.

فالأساس عند ابن خلدون هو العصبية التي يستند إليها الخليفة ، أو الإمام ، ولم يجز ابن خلدون خلع الإمام الخليفة إذا ظلم ، إلا إذا امتنع عن نصح المسلمين له ، وقاوم منع المسلمين إياه من الظلم .

والفقيه الأخلاقي الذي تعرض لمسألة الخلافة ، حين سيطر البويهيون على الخلافة، الذي عاش في أواخر القرن الرابع الهجري، والقرن الخامس الهجري، هو أبو الحسن على الماوردي ، في كتابه "الأحكام السلطانية" . وقد بحث بدوره في الخلافة بحثا نظريا ، متجاهلا حوادث الخلافة والخلفاء التي وقعت في عصره وقبل عصره ، والتي أثبتت فشل النظام الخلافي طوال خمسمائة عام (وتأكد فشلها في الخلافات التي عاصرت الخلافة العباسية) . وقد راح الماوردي يسرد في كتابه تاريخ البيعة للخلفاء الراشدين ، ويسرد شروط أصل الإمامة ، ومن بينها أن يكون الإمام الخليفة قرشيا ، وواجبات الخليفة الدينية والقضائية والحربية ، وقد تجاهل الماوردي أحوال الخلافات: الأموية والعباسية والفاطمية ، ومن الغريب أن يؤكد الماوردي أن مركز الخليفة (وهو خليفة قهر) مركز انتخابي .

والوحيد الذي أعلن في وضوح رأيه ، فيما آل إليه أمر الخلافة العباسية هو البيروني، حين قال في كتابه "الآثار الباقية من الأمم الخالية": إن الخليفة لم يبق له من الأمر شيء ، اللهم إلا ما كان متعلقا بالدين وحراسته . وقد عاش البيروني في ظل الدولة السامانية ، ثم الدولة الغزنوية ، في القرن الخامس الهجري ، وكانت الخلافة العباسية قد صارت خلافة اسمية ، يلتمس حكام دول الأطراف منها الاعتراف والبركات ، مثلما كان ملوك أوروبا يلتمسون هذا الاعتراف وتلك البركات من بابا الفاتيكان .

الفصل الثالث

مصارع خلفاء القصر ووزرائهم

-1-

عدة خلفاء بنى أمية فى دمشق، كانت أربعة عشر خليفة: معاوية الأول ابن أبى سفيان، ويزيد الأول بن معاوية ؛ ومعاوية الثانى بن يزيد الأول، ومروان بن الحكم، وعبد الملك بن مروان ، والوليد الأول بن عبد الملك، وسليمان بن عبد الملك، وعمر بن عبد العزيز ، ويزيد الثانى بن عبد الملك، وهشام بن عبد الملك ، والوليد الثانى بن يزيد الثانى بن عبد الملك، ويزيد الثالث بن الوليد الثالث، وإبراهيم بن الوليد الثالث، وآخرهم كان مروان بن محمد، وكانوا جميعا بين أبناء خلفاء ، أو إخوة خلفاء ، أو أحفاد خلفاء.

•

وخليفتان منهم كان أمرهما عجبا ، بين خلفاء بنى أمية : أولهما **معاوية الثانى بن يزيد الأول**، الذى بويع خليفة ، وهو صبى مريض ، فأبى على نفسه وعلى الناس أن يكون خليفة ، وكان صادقا مع نفسه ، وحاول ترشيح رجل للخلافة بدلا منه، مثلما فعل أبو بكر ، وحاول ترشيح ستة يختارون من بينهم واحدا ليكون خليفة ، مثلما فعل عمر بن الخطاب ، لكن أسرته أبت عليه ذلك، فصعد المنبر يوم جمعة باكيا ، وأدان جده معاوية ، وأباه يزيدا الأول ، قائلا: "يا أيها الناس إن جدى معاوية نازع الأمر أهله، ومن هو أحق به منه لقرابته لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو على بن أبى طالب، وركب بكم ما تعلمون حتى أتته منيته، فصار فى قبره رهينا بذنوبه ، وأسيرا بجرمه". وظل معاوية الثانى يبكى حتى جرت دموعه على خديه ثم قال : "وقد قتل أبى عترة رسول الله صلى الله عليه وسلم (يقصد الحسين) وأباح الحرم ، وخرب الكعبة ، وما أنا بالمتقلد ولا بالمحتمل تبعاتكم، فشأنكم وأمركم، والله لئن كانت الدنيا خيرا فلقد نلنا منها حظا، ولئن كانت شرا فكفى ذرية أبى سفيان ما أصابوا منها. ألا فليصل بالناس حسان بن مالك ، وشاوروا فى خلافتكم يرحمكم الله".

ودخل معاوية الثانى منزله، وتغيب حتى مات فى سنته ، بعد أيام، ولم تدم خلافته سوى أربعين يوما، وعندئذ نقلت الأسرة الأموية الخلافة من فرع أبى سفيان إلى فرع آخر من بنى أمية ، هو فرع أبى العاص ، فكانت الخلافة من نصيب مروان بن الحكم.

والخليفة الأموى الثانى العجيب الشأن والأمر ، كان هو **عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم** ، الذى أشبه فى خلافته عند الناس خلافة جده لأمه عمر بن الخطاب فى عدله وزهده . فقد أوقف عمر هذا سب على وآل بيته فى خطب الجمع على كل المنابر الإسلامية. ورفع الجزية عمن أسلم من أهل الذمة، وكان من قبله لا يرفعونها عنهم بعد إسلامهم، طلبا لغنى بيت المال. وخفف الضرائب عن عامة المسلمين ، وبخاصة عن الموالى من الفرس ، واسترد الإقطاعيات الممنوحة من خلفاء القهر ، لأمراء بنى أمية وولاتهم، وعمالهم ، وردها إلى بيت المال ، فسارع الناس من كافة الأديان إلى الدخول فى الإسلام، فى سائر الأمصار القريبة أو النائية. وأوقف الحروب والفتوحات ، ليستقر الإسلام فى البلاد التى دخلها. وغير الولاة الظالمين بولاة صالحين. وراح يؤثر المصالح العامة على المصالح الخاصة. وكان شعاره : "إن الله بعث محمدا صلى الله عليه وسلم هاديا ، ولم يبعثه جابيا" .

وراح بنو أمية يسبون عمرا هذا لحرمانهم من إقطاعياتهم ، وإنقاصه لمعاشاتهم حتى جعلها مثل عامة الناس .

ولكن عهد عمر كان قصيرا ، فلم يزد على سنتين و7 أشهر. ويقال إن بنى أمية تخلصوا منه بالسم، مثلما تخلصوا من معاوية الثانى.

ولكن الناس من بعده توجوه مكانة كبرى ، فجعله بعضهم ثالث الخلفاء الراشدين بعد أبى بكر وعمر، وجعله بعضهم خامس الخلفاء الراشدين، حتى العباسيون الذين جاءوا بعد بنى أمية، أجلوا ذكر عمر بن عبد العزيز ، فلم ينبشوا قبره، مثلما فعلوا بقبور كل الخلفاء الأمويين. ولقد ظل الناس عدة قرون ، يزورون قبر عمر بن عبد العزيز ، ويقرأون له الفاتحة ، وكان عمر ثانى اثنين نجيا عند الناس فى محكمة التاريخ ، وعند الله فى شرع الله.

وأربعة من خلفاء بنى أمية ، لقوا مصارعهم قتلى ، أولهم : **مروان بن الحكم** ، فقد قتلته زوجته خنقا بوسادة كتمت بها أنفاسه ، لأنه

نقض بيعة الناس له ، على أن يكون ابنها خالد بن يزيد الأول بن معاوية خليفة من بعده، ولكنه أخذ البيعة من الناس لابنه عبد الملك ، ولم يجرؤ ابنه عبد الملك من بعده ، على قتلها حتى لا يقول الناس إن امرأة قتلت أباه، فيلحق به العار .

وثانيهم : **الوليد بن يزيد بن عبد الملك** لإغضابه أكابر أهل بيته والإساءة إليهم ، فاجتمعوا عليه ذات ليلة بالسيوف ، وأحس بهم ، فلحق بغرفته، وفتح المصحف ، وقال يوم كيوم عثمان بن عفان ، وتقدم إليه ابنه يزيد بن الوليد هذا وقتله . ولم تزد خلافة يزيد هذا عن خمسة أشهر.

وثالثهم : **إبراهيم بن الوليد**، ولم يحترمه بنو أمية ، ولا الناس ، فكانوا يسلمون عليه مرة بالإمارة، ومرة بالخلافة ، وخلعه مروان بن محمد ، فهرب إبراهيم من دمشق ، ولكن مروان طارده وقتله وصلبه، ولم تزد خلافته على شهرين.

وتولى **مروان بن محمد** الخلافة من بعده وكان آخر خلفاء بني أمية ورابع الخلفاء الذين لقوا مصارعهم قتلاً، فالفتن كانت تتجمع من العرب والموالي من اليمنيين والشيعة والخوارج والعباسيين ضد بني أمية، فخلع وطورد وقتل ، واستؤصلت من بعده شأفة بني أمية القاتلين والمقتولين.

خلافة القهر الهاشمية العباسية عاشت طويلا في العالم الإسلامي. عاشت عمرا لم تعشه خلافة إسلامية ، ولا دولة إسلامية، أخرى. عاشت خمسمائة وخمسة وعشرين عاما في المشرق الإسلامي ، وتولى الخلافة فيها سبع وثلاثون خليفة، كلهم كانوا من بني العباس، وأكثرهم كانت أمهاتهم من الموالي، ولم يكن بينهم هاشمي الأب والأم سوى الخليفة السادس الأمين ابن هارون الرشيد .

ومرت هذه الخلافة بثلاثة أطوار : طور الشباب أو طور الاستقلال في عهود تسعة خلفاء غير راشدين: أبو العباس السفاح ، فالمنصور ، فالمهدي، فالهادي ، فالرشيد، فالأمين، فالمأمون ، فالمعتصم ، فالواثق. وسيطر هؤلاء الخلفاء التسعة على التاريخ الإسلامي ثمانية وتسعين عاما من عام 750 ميلادية إلى عام 847 ميلادية .

وطور الكهولة أو طور الخضوع لقادة الجيوش الأتراك خارج القصور العباسية ، وللنساء داخل هذه القصور ، في عهود خلفاء ثلاثة عشر خليفة غير راشد، هم: المتوكل ، فالمنتصر ، فالمستعين ، فالمعتز ، فالمهتدي، فالمعتمد، فالمعتضد، فالمكتفي، فالمقتدر ، فالقاهر ، فالراضي ، فالمتقي، فالمستكفي. وأضف إلى ألقابهم جميعا لفظ "بالله"، مثلما فعل قبلهم كل من الخليفتين : المعتصم ، والواثق .

وقد سيطر قادتهم العسكريون الأتراك، أو سادتهم الحقيقيون، على وجه التاريخ الإسلامي باسمهم طوال تسعة وتسعين عاما من عام 847 الميلادي إلى عام 946 الميلادي.

وطور الشيخوخة أو طور التبعية للمحتلين من البويهيين فالسلجوقيين فالخوارزميين ، ثلاثة مائة عام وستة أعوام من عام 946 الميلادي إلى عام 1252 الميلادي، وفي عهود خلفاء بالاسم وبالرمز بلغ عددهم خمسة عشر خليفة غير راشد ، هم : المستكفي ، والمطيع ،

فالطائع، فالقادر ، فالقائم ، فالمقتدى، فالمستنصر، فالمسترشد ، فالراشد، فالمقتفى ، فالمستنجد، ، فالمستضئ ، فالناصر ، فالظاهر ، فالمستعصم . والحق بأسمائهم جميعا لفظ "بالله" ، مثل سابقيهم، فقد كانت تعرض عليهم حين توليهم الخلافة قائمة بأسماء فاعلين من أفعال مختارة ، ليختاروا منها اللقب الذى يريدونه، أسوة بالخليفتين المعتصم ، والواثق ، منذ أن سيطر الأتراك على الخلافة سيطرة تامة، مع بداية عهد الخليفة المتوكل "بالله".

ولقد زخرت حياة معظم هؤلاء الخلفاء بإخلاف الوعد، والنقض للعهد، والغدر بمن نال الأمان، وبفتاوى ساقها لهم بعض الفقهاء، وساقوا معها المبررات التى ترضى هؤلاء الخلفاء ، وتحقق لهم غايتهم : إخلاف الوعد ، ونقض العهد، والغدر بمن أعطوه الأمان.

وزخرت حياة معظم هؤلاء الخلفاء بقتل كتاب ، ووزراء وأمراء ولايات ، وقادة جيوش، كانوا لهم أعوانا ، وتغيرت سياستهم وتقلبت فلم يعودوا بحاجة إلى أحد منهم ، عربيا، أو فرسيا ، أو تركيا.

ونال كثير من خلفاء بنى العباس، فى الطورين الأولين، مصارع من مصارع الخلفاء، والسلاطين، والأمراء ، فى الدول الإسلامية ، على يد ابن، أو طامع طموح فى الخلافة ، أو متآمر من متآمرى بلاطات القصور ومتآمراته: أما أو جارية ، أو قائدا تركيا، أو أميرا على ولاية .

ولم تتوقف مصارع الخلفاء، إلا بعد أن صاروا تابعين لمحتل غاز ، بويهى ، أو سلجوقى، أو خوارزمى، فقد كان الخلفاء فى عهود الاحتلال ، مطيعين ، يكتفون بما يمنح لهم من مخصصات ، وبما يتاح لهم من فرص لمنح الأمراء والسلاطين الغزاة البركات ، ووضع التيجان على الرءوس ، ومنح الأيدى سيوفا ذهبية من سيوف الخلافة .

*

مات منهم على فراشهم ثلاثة وعشرون خليفة ، وقتل أربعة عشر خليفة، وهم: الخليفة الثالث **المهدى**، أمه أروى الحميرية ، وولى الخلافة وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة ، وقاد جيشا قضى به على ابن عبد الجبار الأزدى والى خراسان وعمره خمس عشرة سنة. وقضى فى خلافته بقسوة على الزنادقة، والخوارج ، وعلى فتنة عبد الله بن مروان بن محمد الأموى ببلاد الشام، وفتنة عبد السلام اليشكرى بالجزيرة ، وياسين التميمى بالموصل، وأهل الحوف بمصر ، بالقرب من بلبيس .

وقد دامت خلافة المهدى عشر سنوات. وبسط يده فـي العطـاء على عكس أبيه. ولقى المهدى مصرعه، بسبب سم وضعته جاريـة فـي طعام لجارية أخرى ، فأكل منه المهدى . ويقال إنه قتل أثنـاء مطاردتـه لظبية في لخراش ، فدخل بفرسه وراءها ، فدق باب حرش خرب. فقطـع ظهره ، فمات من ساعته . وكان قد ترك الخلافة من بعده لابنه الهادى، ثم لابنه هارون الرشيد من بعده.

والخليفة الرابع **الهادى بن المهدى** ، كان قاسى القلـب، شـرس الأخلاق صعب المراس، مثل جده المنصور ، فـراح ينكـل بـالعلويين ، ويواصل التمثيل بالزنادقة والخوارج ، ويأخذ أكثرهم بالظنـة والريبـة . وكان قد عزم على خلع أخيه هارون من ولاية العهد، وتوليتها لابنه جعفر، مثلما فعل جده المنصور مع عمه عيسى . فراح يضيق على أخيه هـارون ويضطهده، ويدفع رجال بلاطه للحط من شأنه، فلجأ هارون إلى البعد عـن أخيه بالسفر طلبا للصيد ، وطال غيابه في رحلات الصيد ، فراح الـهادى يدعوه مرار ليعود إلى بغداد ، حتى يتمكن من دفعه لخلـع نفسـه، لكـن هارون لجأ إلى انتحال الأعذار ، إلى أن جاء نعيه. فعاد إلى بغداد مسرعا.

وكان الهادى مسرفا مثل أبيه في العطاء، شديد الغيرة على النساء إلى درجة دفعته إلى إلزام أمه الخيزران بالاحتجاب عن النـاس ، بعـد أن كانت تأمر وتنهى . ويقال إن هذا الحجب، وكراهية الهادى لأخيه هـارون هو الذى دفع أمه لقتله بالسم . ولم تطل خلافته سـوى سـنة ، وشـهر ، واثنين وعشرين يوما .

والخليفة السادس **الأمين بن هارون** ، كان الخليفة الوحيد الهاشمى الأب والأم، وكان عهده مليئا بالفتن والاضطرابات في بلاد الشام على يـد على السفياني ، وبين اليمنيين والمضريين وبين الخرسانيين والعرب، وبينه وبين أخيه المأمون، وقد قتل الأمين على يد الجيش الخراسـانى العلـوى لأخيه المأمون، لأن الأمين بادر بخلع أخيه المأمون ، وتولية ابنه موسـى وليا للعهد من بعده، وأرسل عبد الله بن طاهر قائد جيـش المـأمون رأس أخيه الأمين إليه.

وكان الأمين سيء التدبير كثير التبذير ضعيف الرأى أرعـن، ذا قوة عضلية مفرطة، يحب اللهو واللعب، سخيا بالمـال، بخيـلا بالطعـام،

يعشق حياة الترف، ودامت خلافته أربع سنوات ، وثمانية أشهر وخمسة أيام.

والخليفة العاشر **المتوكل بالله**، تآمر ولي عهده ابنه محمد المنتصر بالله، على قتله مع قادة الجند الأتراك ، فضربه باغر التركي بالسيف، وهو بدمشق، لأنه عزم على نقل ولاية العهد إلى ابنه الآخر المعتز بالله.

والخليفة الحادي عشر **المنتصر بالله** قاتل أبيه الخليفة ، قتله الأتراك، لأنه غضب عليهم، وصار يسبهم، ويصفهم بأنهم قتلة الخلفاء ، فأغروا طبيبه بن طيفور ، وأعطوه ثلاثين ألف دينار ، فغصده بريشة مسمومة فلقي قاتل أبيه حتفه ، وكان فاتكا ، سفاكا للدم.

والخليفة الثاني عشر **المستعين بالله** امتنع عن البقاء في العاصمة سامراء التي كان الخليفة المعتصم (السابع) قد شيدها لنفسه ولجنده الأتراك، وأصر على العودة إلى بغداد ، فخلعه الجند الأتراك، وولوا عمه المعتز . ونشبت بين الخليفتين الحرب. وحين انهزم المستعين بالله في هذه الحرب ، أرسله الأتراك إلى مدينة واسط ليعيش بها منفيا محدد الإقامة بها. في حراسة الجندي التركي أحمد بن طولون ، لكنهم لم يلبثوا أن أرسلوا وراءه سعيد الخادم ، فتسلل في ثلة من الجند، وقتله بنفسه ، خوفا من بقائه حيا.

والخليفة الثالث عشر **المعتز بالله** الذي جاء به الأتراك . ثار ضده جند من جند الأتراك بقيادة بغا الصغير ، فجروه من رجله ، وحبسوه حافيا في ساحة دار، وضربوه بالدبابيس ، ومزقوا قميصه ، وتركوه فترة يعاني حر الشمس على الحصباء ، يرفع رجلا، ويضع أخرى لشدة الحر. ويلطمونه بين الحين والحين ، ثم أدخلوه إلى حجرة.

وطلبوا من أمة قبيحة ثلاثين ألف دينار فداء له ، لكنها آثرت الهرب مع ابنتها من سرداب بالدار ، ومعها مليونا دينار، وجواهر وحلي وزمرد ولؤلؤ وياقوت ، لا يعرف أحد لها قيمة.

ومنع عن المستعين بالله الطعام والماء ثلاثة أيام ، لم يتوقف فيها العذاب ، ثم أدخلوه سردابا . وسدوا بابه عليه ، فمات عطشا وجوعا في ظلام السرداب.

والخليفة الرابع عشر المهتدى بالله . ولى الخلافة بعد أخيه القتيل بيد الأتراك ، ولم يلبثوا أن ثاروا عليه ، فأسروه ، وخلعوه ، وأنزلوا به العذاب. والخليفة الخامس عشر المعتمد بالله حجر عليه أخوه القائد الموفق بالله، ومنعه من نزول دار الخلافة ببغداد، وألزمه البقاء بسامراء، فخلع ابنه المفوض بالله من ولاية العهد، وبايع بالخلافة من بعده للمعتضد بالله ابن أخيه الموفق بالله . ومات فجأة بعد أشهر، وتواترت الإشاعات عن قتله مسموما بيد ابن أخيه.

والخليفة الثامن عشر المقتدر بالله ولى الخلافة وهو ابن ثلاث عشرة سنة، خلعه وزيره العباس بن الحسن الذى قلده الخلافة ، وولى عبد الله بن المعتز الخلافة ، فهرب الخليفة المقتدر ، وقبض رجال حاشية المقتدر على ابن المعتز وحبسوه، وقتلوه بعصر مذاكيره ، ولم يلبثوا أن خلعوا الخليفة المقتدر من الخلافة ، ثم أعادوه وذبحوه وولوا الخلافة القاهر بالله.

والخليفة التاسع عشر القاهر بالله حفر فى داره خمسين مطمورة تحت الأرض، كى يلقى فيها بخصومه ، فقبض عليه حرس هذه المطامير الحجرية الخاص ، وحبسوه ، وسملوا عينيه . وتمكن من الهرب من سجنه، بعد ثلاثة عشر عاما ، ووقف أمام جامع المنصور يتسول العطاء ، فأعيد إلى سجنه، ومات فيه ، بعد سجن دام ثلاثين سنة فى مطمورة.

والخليفة الحادى والعشرون المتقى بالله حاول الاستعانة بابن حمدان، وقلده إمرة الأمراء بدلا من ابن رائق ، فقبض كوزون التركى عليه ، وسمل عينيه، وخلعه ، وولى بدله المستكفى بالله .

والخليفة الثانى والعشرون المستكفى بالله استقبل البويهيين غزاة بغداد على الأبواب ، وكان الخليفة المستكفى قد دعاهم لدخول بغداد ليقيلوا الخلافة من عثرتها، ومن تسلط الأتراك ، وسيطرة أمير الأمراء. لكن معز الدولة البويهى لم يلبث أن أهان هذا الخليفة ، وقبض عليه، وأجلس مكانه المطيع بالله على عرش الخلافة، وحدد له راتبا ألف درهم فى اليوم ، ثم قطع هذا الراتب عنه ، وحدد له إقطاعات يسيرة بالبصرة يعيش منها .

وكان آخر الخلفاء العباسيين الذين قتلوا ، وقتل معه أهله جميعا ، ذبحا بالسيوف . هو الخليفة العباسى السابع والثلاثون المستعصم بالله، وقتله الغازى المغولى تيمورلنك. وبقتله له انتهت صفحة الخلافة العباسية.

-3-

كان الوزير في ظل الخلافة العباسية ساعد الخليفة الأيمن . ويجمع في شخصه السلطتين المدنية والحربية ، ومستشارا له ومساعدا . وكان ينوب عنه في حكم البلاد ، ويشرف على الضرائب، وينصب العمال. وكثيرا ما كان الوزراء يتعرضون لبطش الخلفاء العباسيين بهم . فقد قتل أبو العباس السفاح وزيره : **أبو سلمة الخلال** ، أول الوزراء العباسيين .

وقتل أبو جعفر المنصور وزراءه وزيرا بعد وزير . قتل وزيره **أبو الجهم**، ثم قتل وزيره **أبا أيوب الموريانى**.

وقتل الخليفة الهادى وزير جده ثم أبيه ، ثم وزيره ، **الربيع بن يونس**.

وحدد الخليفة المهدى إقامة وزيره **معاوية بن يسار** في داره إلى أن مات ، ثم سجن وزيره **يعقوب داود** فظل سجينا إلى عهد الرشيد ، ونجا الوزير **الفيض بن صالح** من غضب المهدى. وقتل الرشيد وزراءه من بنى برمك لازدياد نفوذهم في الدولة .

وحين ضعفت الخلافة العباسية ، زاد نفوذ الوزراء في الدولة ، ولدى الخلفاء وقويت المنافسة بين طالبى الوزارة ، عن طريق الرشوة ، ابتغاء الوصول إلى كرسى الوزارة . وصار الوزراء يتدخلون في اختيار من يكون خليفة . فكان من يصل إلى الخلافة من بنى العباس ينتقم من المناوئين لاستخلافه من الوزراء .

فقد قتل الخليفة المتوكل وزير الخليفة الواثق : **محمد بن عبد الملك الزيات**، وكان من قبل وزيرا للخليفة المعتصم ، وللخليفة الواثق . وقتله في تنور من حديد ، وضع فيه مسامير ليعذب به من يريد تعذيبه . وكان ذلك التنور من ابتكار ابن الزيات ليعذب به خصومه ، فكان هو أول من عذب به، وكان قتل المتوكل له لأنه كان يسعى لاختيار أحد أبناء الواثق خليفة بدلا منه.

وحين ولى المستعين بالله الخلافة اتخذ **أحمد بن الخطيب** وزيرا له، لكن الأمراء هددوه، بالقتل لتضييقه عليهم في الأموال. فسارع بالهرب من البلاد ولم يبق في الوزارة إلا شهرين.

واستوزر المهتدى بالله **سليمان بن وهب** ، وكان منزلته عنده مثل منزلة البرامكة عند الرشيد ، وبني سهل عند المأمون . وكان بنو وهب فرسان ذوى مواهب ونفوذ ، وصار الوزير سليمان بن وهب وزيرا للخليفة المعتمد بعد المهدى . وحين مات ابن وهب عمل الخليفة المعتمد على تصفية أموال أهل بيته . واستئصال شأفتهم ، فسارع ابنه **عبيد الله بن سليمان** بدفع ألفي ألف دينار للخليفة المعتمد ، فاحتفظ بهيبة أسرته العريقة، وسارع الخليفة بتعيين عبيد الله هذا وزيرا له ، في كرسي أبيه الشاغر . وكان للخليفة المقتدر أكثر من وزير .

قلد المقتدر الوزارة **أبا الحسن علي بن الفرات** ثلاث مرات ، ثم قبض عليه وزج به في السجن. وكان لبني الفرات من الشأن في العصر العباسي ما كان لمن قبلهم من البرامكة وبني سهل وبني وهب . وكان الوزير **علي بن عيسى** من أقدر وزراء الخليفة المقتدر ، لكن بقاءه في الوزارة لم يطل، بسبب إسراف الخليفة المقتدر في عزل الوزراء ، والقبض عليهم ، وتدخل النساء في أمور الدولة .

وقد حدث أن قهرمانة "السيدة" أم الخليفة ، أرسلت إلى الوزير علي بن عيسى تطلب منه تقديم المال اللازم لها لعيد الأضحى، فاعتذر الوزير فغضبت القهرمانة ، وأوغرت صدر السيدة عليه، فقبض عليه وزج به السجن.

وخلفه الوزير **حامد بن العباس** ، وكان قليل الخبرة بالوزارة ، وهو الذى تم على يديه قتل الحسين بن منصور الحلاج .

ولقد تقلد الوزارة في عهد الخليفة المقتدر اثنى عشر وزيرا ، عزل بعضهم مرارا.

وعزل الخليفة الراضي وزيره ووزير المقتدر من قبله : **محمد بن مقلة** ، بعد أن قطع يده اليمنى وحبسه ، لوشاية أعدائه به ، ثم اتضحت له براءته . وحين اضطر الخليفة المقتدر لتقليد **ابن رائق** شئون الدولة كلها، ولقبه بلقب أمير الأمراء ، أصبح تعيين الوزراء وعزلهم بيد أمير الأمراء ، واقتصرت مهمتهم كوزراء على الحضور إلى دار الخلافة في

المواكب مرتدين السواد، متقلدين السيوف والمناطق، وسواها من شعارات الوزارة العباسية .

وحين استولى البويهيون الشيعيون على بغداد ، بدعوة من الخليفة المستكفي قضوا على نفوذ الوزراء ، وحلوا محلهم، واستبدوا بالسلطة دون الخلفاء العباسيين ، وكذلك كان شأن الخلفاء والوزراء العباسيين في عهد السلاجقة السنيين ، الذين حلوا محل البويهيين في بغداد.

وكثيرا ما كان الكتاب في الدولة العباسية كتابا وزراء ، والوزراء كتاب ، وكثيرا ما كان الكتاب في الخلافة العباسية معرضين للاضطهاد والعزل والمصادرة، وزراء كانوا أو غير وزراء .

* * *

الفصل الرابع

الحالة الاقتصادية والاجتماعية في خلافات القهر

-1-

مع بداية الدولة العباسية راح العباسيون يستصفون أموال بني أمية ، ويكتشفون مظالم بني أمية ، ويأخذون الأموال لأنفسهم وأنصارهم ، ويحتذون المظالم الأموية ، ويحاكونها فيما بعد ، واعين كانوا أو غير واعين ، فالخلافة العربية في جوهرها خلافة واحدة ، أموية كانت أو عباسية، خلافة قهر واستبداد، ووراثة وتملك. فماذا وجده العباسيون وراء بني أمية ، وأنصار بني أمية ، وصحابة من صحابة الرسول عاشوا في عهد بني أمية ، طوال تسعة وثمانين عاما؟!

كان **معاوية بن أبي سفيان** ، هو أول الخلفاء المسلمين الذين اتخذوا الحشم، وأقاموا الحجاب على أبوابهم ، ولقد وضع معاوية مقصورة خاصة به في المسجد لصلاته، يحرسها سيوف، وحراس وقسوف ، يحرسونه أثناء صلاته في الجمع، والصلوات الخمس كلها . وكانت ثياب معاوية بيضاء من غير سوء، وعمامته بيضاء ، مرصعة بالجوهر ، وبيده شارتا الملك : عصا الملك، وخاتم الملك يمهر به أوامره .

وكانت قصور كل الخلفاء الأمويين في دمشق (عدا عمر بن عبد العزيز) مزدانة الجدران بالفسيفساء، وأعمدتها من رخام مذهب ، وسقوفها مذهبة ، مرصعة بالجوهر ، وبساتينها بها نافورات ، تحيط بها أزهار عطرة، وأشجار برتقال وليمون ، والمياه تتدفق في جداول بحدائقها الغناء، خلال أشجار ظليلة وريفة ، تتسلل إلى القصور من كل الأنحاء، وبين طرقات من الأحجار والحصباء.

وداخل كل قصر كانت أفنية مستطيلة ، تحيط بها أروقة من الأعمدة، أراضيها من الرخام والبلاط الملون. وعلى جانب أوسع فناء إيوان مفروش بالرخام، يستعمل قاعة للاستقبال في الصيف، وقبالة باب الفناء كوة ، ونافذة، مزخرفتان بأعمدة الرخام، وفي الكوة طست وإبريق للوضوء.

وفى البهو الكبير بقصر الخلافة ، كان الخليفة الأموى يجلس ، على يمينه أمراء البيت المالك ، وعلى يساره رجال الدولة وأعيان البلاد ، وأمامه رسل الملوك ورؤساء الطوائف ، والشعراء المداحون، والفقهاء الواصلون ، جاهزون للجدال ، والخلاف ، وحيل الفقهاء. يخرجون بها الناس من التحريم إلى التحليل ، ومن المحظور إلى المباح.

وقصور الأغنياء من الأمويين ، وغير الأمويين ، فى دمشق وسواها، من مدائن العروبة الأموية ، كانت من طبقتين ، وعلى اليمين والشمال أبهاء وأبواب ، تكسو هذه وتلك ستور كثيفة ، من الحرير والقطيفة. ووراء الستور حجرات ، وفى الطابق الأسفل الخدم والحشم، والعبيد والجوارى ، والقيان والسميرات.

وفى الشتاء كانت أراضى الإيوانات الرخامية ، والحجرات الملونة ، تزود بالطنافس الثمينة ، تتوسطها المواقد طلبا للدفء. وفى الصيف كانت مياه النوافير ، وأهوية النوافذ والكوى، وعليها ستور مبللة دائما ، تلطف حرارة الجو، وحتى سقوف قصور الأغنياء كانت مزينة بنقوش عربية الطراز ، مطلية بالذهب . وتحت هذه السقوف كانت مقاعد من الطنافس ، طنفسة فوق طنفسة ، تحتها طنفسة ، هى مقاعد قصور الأغنياء والأمراء .

*

وبعد عباءات الصوف البدوية الخشنة ، المرقعة بالأديم (الجلد) ، وبعد القرب المعلقة على الأكتاف ، فى الأسفار القصيرة والطويلة ، وبعد الأقبية المشقوقة الوسط، تحت العباءات، والمربوطة الوسط بحزام من الجلد، صارت هذه العباءات من أصواف الأمصار الناعمة النسج، وصارت الأقبية من حرير لم يبحه الإسلام للرجال ، وصارت القرب تحملها الإبل ، والخدم، والبغال.

وأولئك ، وهؤلاء ، خلفاء، وأمراء ، وأغنياء ، كانت لهم رياضاتهم للتسلية وسباقات للخيل ، وللصيد ، تدريبا ، فى الوقت نفسه على القتال ، وصيد الهاربين والمتهربين من دفع الخراج ، أو من الرق، وصيد الأسرى فى ميادين الطراد والقتال ، وحتى كلاب الصيد الأموية ، كانت لها أساور من ذهب ، وأردية من حرائر ملونة ، ولكل كلب خادم أو أكثر،

هو عبد من العبيد ، اشترى بالمال من وسط آسيا ، أو جئ به أسيرا من أسرى الحروب، كي يقوم بخدمة الكلب ابن الكلب.

وعرف أهل القصور الأموية ، والعربية ، حياة الترف وحب الظهور، ومنهم كان صحابيون أجلاء :

الزبير بن العوام كانت له قصور بالبصرة ، وبالكوفة ، والفسطاط، والإسكندرية ، وبلغ ماله حين وفاته ، خمسين ألف دينار ذهبي روماني ، وألف فرس، وألف عبد، وألف أمة ، وكانت له مزارع في العراق ، ومصر، والحجاز .

وطلحة بن عبد الله ، أحد العشرة المبشرين بالجنة، كانت له قصور بالكوفة ، وعلى قمم جبل بمدينة الطائف ، على ارتفاع خمسة آلاف قدم فوق سطح البحر ، ومزارع من الكروم الطائفي، وقصب السكر ، وقصور بالمدينة ، وكانت له مزارع بالعراق ، تدر عليه في كل يوم ألف دينار ذهبي.

وعبد الرحمن ابن عوف، أحد رجال الشورى الستة ، كانت له قصور بالمدينة ، والشام، ومصر، وبلغت ثروته حين وفاته 682 ألف دينار ذهبي ، وألف بعير ، وعشرة آلاف من الغنم، وفي حظائره كان مائة فرس، هذا للنزهة ، وذلك للسباق، أو القتال .

وسعد ابن أبي وقاص فاتح بلاد فارس ، كان له ، حين وفاته، قصر وحيد بالعقيق بظاهر المدينة محاط بشرفات على الجهات الأربع، كل منها لمجلس من مجالس الفصول الأربعة .

وسعيد بن المسيب بن زيد بن ثابت ، ترك وراءه ، حين وفاته ، من الذهب والفضة ، ما يكسر بالفئوس ، ومن الأموال والضياع ، ما قيم في حينه ، بمائة ألف دينار ذهبي روماني.

والمقداد بن الأسود ، كان له قصر بأعلاه شرفات، في موضع "الجرف" على بعد أميال من المدينة.

ويعلى ابن أمية، ترك وراءه ، حين مات ، خمسمائة ألف دينار ذهبي، وعقارات ، وديونا له على العباد، قدرت ، حين تقسيمها بين الورثة، بمائة ألف دينار ذهبي روماني ، ولم يكن لأحد منهم شيء من هذا كله في عهد عمر بن الخطاب. ولم يقدر أحد في عهد عمر ، أن يخرج للقتال ، ويخرج وراءه أكثر من ألف رجل، فقط لحمل حاشيته ، ومتاعه ،

وهو فى طريقه إلى حرب ، قد يسقط فيها شهيدا، وقد يعود منـها غانما ظافرا ، مثل ذلك الرجل الغنى المقاتل من أهـل الكوفـة ، الـذى خـرج للجهاد، وأيضا لكى يأخذ بنفسه وبحاشيته وبرجاله معا، أنصبة أكـثر مـن الغنائم والفيء فى ساحات القتال ، حين الزحام لجمع الغنـائم والأسـلاب، وحين التحلق فى حلقات لأخذ نصيب من الفيء.

ولم يعرف عهد عمر بن الخطاب، أحد خلفاء الشورى حفيدا مثـل الحر بن يوسف ، حفيد مروان بن الحكم، وكان والد يوسف هذا واليا على الموصل. وكان لهذا الحفيد خانات (فنـادق) يملكـها بـالموصل ، تعمـل لحسابه. وكان له قصر منيف بالموصل ، من الرخام والمرمر، وقد شـقت له قناة خاصة من النهر ، تمد حدائق القصر بالمياه.

ولقد بلغت تركة معاوية بن أبى سفيان الخاصة ، حين وفاتـه ، رقما مذهلا هو رقم بيت المال الخلافى نفسه ، فلم يكن ثمة فرق بين مـال بيت المال العام ، ومال الخليفة الخاص.

وللخروج من هذا الحرج، وحتى لا يترك بيت المـال خاويـا ، بأيلولة ما به بالميراث إلى ابنه يزيد ، أوصى معاوية بنصف مالـه إلـى بيت المال. ولا يدرى أحد هل نفذ يزيد هذه الوصية بعد وفـاة معاويـة ، أم لا .

وكانت لمعاوية أرض بالبلقاء ورثها عن أبيه سفيان بن حـرب ، واشترى معاوية فى خلافته أرضا بوادى القـرى مـن بعـض اليـهود ، وأضاف إليها أرضا بالإحياء للأرض الموات، أنفق على إحيائها بالطبع من مال بيت المال. واشترى معاوية أرضا بالطائف من بعض اليهود.

ووضع معاوية يده على "فدك" مغيرا سنة أبى بكر وعمر ، اللذين جعلاها مالا عاما لبيت المال ، وأقطعها لمروان بن الحكم ، فورثـها مـن بعده، أولاده، وهى الأرض التى رفض أبو بكر أن يعطيها لفاطمـة ابنـة الرسول، لأن الأنبياء لا يورثون ، وما يتركونه صدقة عامـة ، تـودع عوائدها فى بيت المال .

ولقد أخذ معاوية لنفسه فى عهد عثمان أراضى الصوافـى كلـها (الإقطاعيات) بالشام التى كانت لقواد الروم ، وبطارقتهم ، وكـانت بينـها كورتان، بفلسطين .

واستصلح معاوية لنفسه، وبمال بيت المال ، أرضا بالبطائح بين البصرة والكوفة. استصلحها له مولاه عبد الله بن دراج ، واليه على العراق ، ولقد جعل معاوية أرض مصر طعمة (لقمة خاصة) لعمرو بن العاص ، مدة ولايته الثانية على مصر ، (خمس سنوات) مكافأة له لاسترداده مصر، من التبعية لعلى بالكوفة ، إلى التبعية له (معاوية) بدمشق. يأخذ عمرو خراجها ، وجزيتها، وعشورها ، لنفسه ، وينفق منها ما يقبل أن ينفقه على الأجناد ومصالح أهل مصر ، ويدخر منها ما يريده لنفسه ، ولا يعطى لبيت المال فى دمشق من هذا العائد كله أى شيء.

ومثل معاوية فعل من بعده مروان ابن الحكم، حين أقطع لابنه عبد العزيز بن مروان ، الوالى على مصر ، مصر كلها ، تعويضا له عن عدم توليته للعهد، بعد أخيه عبد الملك . ودامت هذه الإقطاعية لذلك الوالى، عشرين سنة ، فى عهده ، وفى عهد إخوته الخلفاء من بعده: (عبد الملك ، والوليد ، وسليمان).

*

وكان الإسلام قد أبطل هدايا أعياد النوروز والمهرجان الفارسية ، التى كان الشعب الفارسى يجمعها ويقدمها لولاة أكاسرة الفرس على أقاليم فارس، ولكن معاوية أعاد هذه السنة الفارسية بالأمر الخلافى ، كى يغتنى ولاته على فارس بالأمر الخلافى ، فكان أهل الفرس يهدون الهدايا إلى عامله على الخراج عبد الله بن دراج ، وكان نصيب معاوية من هذه الهدايا فى السنة عشرة ملايين درهم ، تصل إليه فى الشهر السابع من السنة الفارسية ، شهر مهرماه .

كذلك رفع معاوية الجزية على أهل مصر خمسين فى المائة ، بدعوى أن مصر فتحت عنوة ، لا صلحا، وفرض على من أسلم من أهل مصر ، أن يستمروا فى دفع الجزية بعد إسلامهم ، فكان هناك مسلمون عرب فى الدولة الأموية (من الدرجة الأولى فى المواطنة) لا يدفعون جزية، ومسلمون غير عرب (من الدرجة الثانية فى المواطنة) يدفعون جزية ، وتزاد عليهم عما سنه عمر بن الخطاب .

ومن بعد معاوية غير عبد الملك نظام الجزية على أهل الجزيرة والشام ، فبعد أن كانت دينارا فى عهد عمر ، ودينارين فى عهد عثمان ، وثلاثة دنانير فى عهد معاوية ، صارت أربعة دنانير ، هى كل ما كان

يمكن لفقير أن يدخره في عام ، وسوى في هـذا الرفـع بيـن الأغنيـاء والفقراء، ولم تعد الجزية إلى ما كانت عليه إلا في عهد الخليفة **عمر بـن عبد العزيز** القصير العمر (سنتين وسبعة أشهر) ، ثم عادت من بعده إلـى ما كانت عليه ، للابقاء على ثراء الخلفاء ، ومال الخلفاء في بيت المـال، في العهد الأموى، والعهد العباسي، على السواء.

ولقد كان عمر بن عبد العزيز قد أعفى رهبان مصر من دفع أية جزية ، لكن والي مصر **عبد العزيز بن مروان** ، فرض على كل راهـب أن يدفع دينارا في كل سنة ، ولم تبطل من بعده.

ولقد كان الموالي من الفرس، قد اقبلوا على الإسلام بقرى فـارس بأسرها في عهد عمر بن العزيز ، لأنه أسقط عمن يسـلم دفـع الجزيـة، فوفدوا على المدن ليقيموا بها تاركين قراهم، والأرض التي يزرعونـها ، فرارا من دفع الخراج ، لكن **الحجاج بن يوسف الثقفي** والي عبـد الملـك ابن مروان أعادها عليهم ، بعد إسلامهم ، ونقش على يد كل منهم بالوشـم والكي اسم قريته ، وأعاده إليها ، وجرؤ ولاة مصر الأمويون ، من قبـل عبد العزيز بن مروان ، على أن يسموا كل راهب بحلقة فيها اسمه ، واسم ديره ، وتاريخ رهبنته ، حتى يتميز الراهب الذي لا يدفـع جزيـة ، مـن مدعي الرهبنة الذي يطلب لنفسه هذا الإعفاء.

•

ومن وراء ظهر الخلفاء الأمويين ، فعل الولاة الأمويون أفـاعيل عجيبة ، بأموال بيت المال في الأقاليم ، حين يثورون علـى الخلفـاء، أو حين يعزلون عن ولاياتهم، وبعضهم تغوضي عن أفاعيله، وبعضهم عوقب عليها: الوالي **قره بن شريك** ، وكان من الولاة المرتشين ، ولي أمر مصـر خلفا لعبد الله بن عبد الملك ، فأخذ كل أموال البيت بمصر ، وهـرب بـها إلى الأردن ، حين عزل عن مصر، فطورد وقبض عليه ، وصـودر مـا معه، وأسلمه عبد الله لأخيه الخليفة الوليد ، فقتله هو وعبيده.

وعباد وعبد الرحمن ابنا زياد، كانا واليـين علـى خراسـان، وسجستان، وعزلا عن الولاية ، وأقيم أخوهما سلم بن زياد ، واليا مكانـهما على الولايتين، فسارع عباد بتقسيم المال بينه وبين عبيده انتقاما من هـذا العزل له عن ولاية الخراج ، ولم يعاقب الخليفة يزيد بن معاوية عبادا على

ما فعله بمال بيت المال ، بل إنه منح أخاه عبد الرحمن بـن زيـاد تسـعة عشر مليون درهم، مثل التي نالها نهبا أخوه عباد.

وحين دخل المختار الثقفي الشيعي الثائر مدينة الكوفـة عنـوة ، وجد في بيت مالها تسعة ملايين درهم ، استحلها، وأعطاها لمن كان معـه من الجنود والموالي الشيعيين ، وترك بيت مال الكوفة خاليا للأمويين .

ولقد حدث في عام (12 هجرية) أن سجلات العـراق أحرقـت ، وكانت للدولة بهذه السجلات أراض يبلغ عائدها خمسين مليـون درهـم. وعندئذ تقدم أفراد ، وتقدمت أسر، ووضعت أيديها على هـذه الأراضـي الخاصة بالدولة ، وبين الواضعين لأيديهم كان عمال الخلافـة بـالعراق ، وكأنها كانت أراض لا صاحب لها.

*

وفي عهد بني أمية ، ظهرت ظواهر اقتصادية عجيبـة ، هـي : الإلجاء، والإيغار، والتقبل ، فضلا عـن الصوافـي (أي الإقطـاع) التـي ظهرت في عهد عثمان.

فقد كان المزارع يلجئ أرضه إلى أمير، أو على قوي ، يحتمـي به ، ويكتب أرضه باسمه، ويقوم المزارع بدفع خراجـها الميسـر بـهذا الإلجاء. وتكون النتيجة دائما هي أيلولة هذه الأرض إلى من كتبت الأرض باسمه. فعل ذلك الناس مع مسلمة بن عبد الملك بالبطائح بالعراق ، وفعلـه أهل مراغة في أذربيجان مع مروان بن محمد آخر خلفاء الأمويين ، وفعله العجم في قرى أذربيجان مع القواد العرب في أذربيجـان. وكـان نظـام الإلجاء هذا ، قبل الإسلام نظاما للحماية فارسـيا ورومـيا، فـي منـاطق الحدود.

ونظام الإيغار كانت له صور ، منها أن يؤدي آخذ الأرض مـن الخليفة (وهو دائما من أتباع الخليفة) الخراج مباشرة إلى الخليفة، فرارا من العمال، ومنها أن يعفى التابع من أداء أي خراج عن الأرض الممنوحة لـه من الخليفة .

ونظام التقبل يعني أن يعطي آخذ الأرض الخليفة مباشـرة قـدرا معلوما من المال يدفعه، فيستفيد السلطان تعجيـل المـال مقدمـا، ويـأخذ المستفيد الفرق بين ما دفعه ، وما يحصله مـن زارعـي الأرض (نظـام الالتزام). ولقد تصارع الأتباع في الحصول على شـرف هـذا الالـتزام،

فراحوا يزايدون على بعضهم البعض ، في مزاد عام عاماً بعد عام، والمستفيد الأول هو الخليفة ، والمضار الأول هم المزارعون، وهو نظام غير شرعي في الإسلام ، ففيه فساد في الأرض، وإهلاك للحرث والنسل، ودفع للمضارين للفرار من زراعة الأرض.

* * *

-2-

وفى العصر العباسى، اشتعلت نيران المنافسة بين عرب الشمال المضريين وعرب الجنوب اليمنيين ، وبين العرب قاطبة والفرس ، وبين العرب والفرس معا والترك، وبين الترك والديلم، وبين السنيين والشيعيين، وبين العباسيين والعلويين . وكانت طبقات الشعب الرئيسية فى العصر العباسى تتكون من : العرب، والفرس، والأتراك.

ومن طبقات الشعب كان أهل الذمة من النصارى واليهود.

وكان الرقيق يكون طبقة كبيرة فى المجتمع العباسي فى العصر الأول.

وقد انغمس العباسيون فى الترف والبذخ، وأخذوا نظام مجالس الفرس في الغناء والطرب ، وبلغ **الرشيد** فى الولع بالغناء الذروة، ونبغ أخوه **إبراهيم بن المهدى** فى الغناء، وجارى الأمراء والوزراء وسائر رجال الدولة الخلفاء العباسيين في الولع بالطرب والغناء والمنادمة ، وأجزلوا العطايا للموسيقيين والمغنين.

وكان الخليفة **الواثق** نفسه يتقن الغناء اتقانا لم يسبق إليه خليفة ولا ابن خليفة ، وقد وضع أصواتا وأنغاما جديدة بلغ عددها نحو مائة صوت . وكان ماهرا في ضرب العود، وكان يصحبه دائما فى أسفاره إسحق الموصلى.

•

واتخذ الخلفاء العباسيون القصور ، وكانت قصورهم دورا واسعة بها قباب وأروقة ، ومسطحات مظللة بالأشجار ، بها غلمان يتراوح عددهم بين الأربعين والستين غلاما . ومن هذه القصور ، قصران بناهما **أبو جعفر المنصور** : قصر الذهب بوسط بغداد ، وقصر الخلد علي شاطئ دجلة الغربى . وكانت بقصر الخلد قباب بديعة الشكل ، وبأبوابه مسامير من الذهب والفضة ، تتخلله أعمدة كثيرة ضخمة ، مزينة بالرسوم

والصور. وفي هذا القصر العرش ، ويسمى مجلس الأمير ، وقد فرش بالرخام المجزع، يتوسطه قضبان من الذهب ، ومد عليه الديباج والبسط ، وعلى هذه البسط نقشت أبيات من الشعر في مدح الخليفة .

وفي مجلس الأمير كانت كراسي مرصعة باللؤلؤ يجلس عليها كبار رجال الدولة . وفي صدر هذا المجلس كان عرش الخليفة المنصور ، في قبة مفروشة بأفخر أنواع الحرير المنسوج بالذهب.

وعلى شاطئ دجلة بنى الرشيد قصرا تألق في تجميله، وزينه بأفخر أنواع الزينة، وأقام فيه أساطين الرخام . وكان يجلس إلى الشباك يستمع إلى غناء الملاحين .

وشيد الخليفة الواثق في مدينة سامراء عدة قصور منها القصر الهاروني ، وبه رواق أوسط ، في أحد شقيه قبة مرتفعة في السماء كأنها بيضة ، وفي وسطها ساح منقوش مغشى باللازورد والذهب . وكان ذلك الرواق يسمى رواق قبة المنطقة.

ومثل الخلفاء العباسيين ، شيد الأمراء ورجال الدولة قصورا تكتنفها الحدائق الغناء. وبلغ من فخامة أحد هذه القصور واتساعه ، أنه اتسع لمجلس الخليفة المنصور ، ومعه أربعة آلاف رجل . وكان هذا القصر للأمير العباسي **عيسى بن عبد الله بن العباس**، عم الخليفة المنصور .

ومثل الخلفاء العباسيين شيد الوزراء البرامكة لهم قصورا ، وتأنقوا بتجميلها وتأثيثها ، كي تبقى شاهدا على الزمن تنطق بمآثرهم وذكراهم . وعاش البرامكة في هذه القصور عيشة قوامها البذخ والإسراف وحب الظهور . وتكلف بناء قصر **جعفر** البرمكي مليون دينار ذهبي وثلثمائة ألف دينار ، عدا ما كان به من أثاث ورياش ، وأسباب البذخ وألوان الترف.

وشيد **محمد بن سليمان** قصره بالبصرة ، وبلغت ثروته حين ودع الدنيا خمسة ملايين دينار من الذهب.

ونافس الفاطميون بمصر والشام والأمويون بالأندلس بقصورهم قصور خلفاء بني العباس وأمرائهم وكبار رجال دولتهم.

وأسرف الخلفاء العباسيون في الطعام ، وقلدهم الأمراء ، وكبار رجال الدولة . وكانت نفقات مطابخ المأمون ستة آلاف دينار ذهبي في كل يوم، وشرب بعض الخلفاء الأمويين النبيذ ، ومنعه أكثرهم على موائدهم.

ولبس الخلفاء العباسيون في المواكب الأقبية السود، أو البنفسجية المفتوحة عند الرقبة، وكانت هذه الأقبة تصل إلى الركبة . وكانت القفاطين تظهر من تحتها زاهية . وبلغ عرض أكمام هذه الأقبية في عهد الخليفة المعتصم ثلاثة أذرع . وكان الخليفة العباسي يتمنطق بمنطقة مرصعة بالجواهر ، ويتشح بعباءة سوداء، ويلبس قلنسوة طويلة مزينة بجوهرة غالية، وحول القلنسوة عمامة ذات لون أسود، وكان الخلفاء يلبسون أحيانا العمامة والطيلسان . وكان الأمراء والنبلاء يقلدون الخلفاء في ملابسهم.

وأولع الخلفاء العباسيون باتخاذ الإماء من غير العرب ، لأنهن كن في الغالب أوفر جمالا . وكثيرا ما كان أبناء الجواري أحب إلى آبائهم من الخلفاء والأمراء العباسيين من أبناء الحرائر . وكان كثير من الخلفاء العباسيين أبناء أمهات أولاد. فأم المأمون فارسية ، وأم المعتصم تركية ، وأم المتوكل تركية خوارزمية ، وأم كل من المقتدر والمستكفي رومية ، وأم المطيع بالله صقلبية.

•

وحين بلغ النفوذ الفارسي ذروته في عهد الخليفة الرشيد ، احتفل الرشيد بالأعياد الفارسية القديمة.

وحرص الخلفاء العباسيون على منافسة سابقيهم من الخلفاء الأمويين في المواكب . ففي أيام الجمع كان الحراس على اختلاف طبقاتهم يتقدمون موكب الخليفة لصلاة الجمعة، حاملين الأعلام ثم يليهم أمراء البيت العباسي على الخيول المطهمة، ثم يظهر الخليفة نفسه ممتطيا جوادا شديد البياض ، وبين يديه كبار رجال الدولة .

وكان الخليفة يلبس في تلك المواكب القباء الأسود ويتمنطق على قفطانه بمنطقة مرصعة بالجواهر ، ويتشح بعباءة سوداء ، ويلبس قلنسوة طويلة مزينة بجوهرة غالية ، وبيده قضيب النبي صلى الله عليه وسلم وخاتمه ، ويتدلى على صدره سلسلة ذهبية مرصعة بالجواهر النفيسة . وفي أوقات الصلاة ، كان يضرب على أبواب قصور الخلفاء بالطبول والدبادب والأبواق.

وأعظم مواكب الخلفاء العباسيين كان موكب الحج . ففي بغداد كان يجتمع الحجاج من أهل العراق وفارس وخراسان ، يحرسهم الجند. ويتقدمهم في الطريق إلى الحج موكب الخليفة ، وقد ارتدى بردة الرسول وركب فيلا ، وبصحبته جماعة من الأمراء ورجال بيت الخليفة ، تتبعه الإبل بحريمه وأهل بيته.

وفي حفلات الزواج كان يتجلى إسراف الخلفاء . فقد أقام الخليفة المهدي عند زواج ابنه هارون بالسيدة زبيدة وليمة ، لم يسبق إليها أحد في الإسلام ، ووهب للناس في هذا اليوم أواني الذهب مملوءة بالفضة ، وأواني الفضة مملوءة بالذهب والمسك والعنبر ، وزينت زبيدة بكثير من الحلي والجوهر ، حتى أنها لم تقدر على المشي ، لكثرة ما عليها من الحلي والجواهر .

وأمهر المأمون "بوران" يوم زواجها مائة ألف دينار ذهبي، وخمسين مليون درهم فضي (أكثر من نصف مليون دينار ذهبي)، وأوقد بين يديه في تلك الليلة ثلاث شمعات من العنبر . ونثر المأمون على بوران لؤلؤا كان في كمه . فوقع على حصير منسوج من الذهب. فالتقطت منها زبيدة حبة ، وتبعها الحاضرون في التقاط اللؤلؤ.

وبلغت نفقات زواج السيدة زبيدة سبعة وثلاثين مليون درهم . وأمر المأمون للحسن بن سهل والد بوران بعشرة ملايين من الدراهم ، ومنحه خراج إقليم فم عمره كله ، وخراج إقليم فارس والأهواز لمدة سنة وأسرف الحسن بن سهل نفسه في زواج ابنته من الخليفة المأمون، فنثر على الهاشميين والقواد والكتاب بنادق مسك ، بها رقاع بأسماء ضياع وجوار وخيول ، هبة لهم ، ثم نثر على سائر الناس الدنانير والدراهم ونوافج المسك وبيض العنبر.

وكان الخلفاء العباسيون مغرمون بالصيد بحذاء نهر دجلة، يصيدون الطيور والغزلان . وكانت نصال سهامهم من الذهب . وكانت لهم كلاب صيد سريعة العدو. لكل كلب منها راع يقوم برعايته .

•

وفي العصر العباسي الثاني قامت قبيحة زوجة المتوكل وأم المعتز بدور هام في عزل الخليفة المستعين ليصفو الجو لابنها المعتز ، ومع ذلك تركت ابنها للأتراك يقتلونه لأن رواتبهم تأخرت عليهم ، وقدرها

خمسون ألف دينار. فذهب ضحية بخلها وقسوتها ، وحين مـاتت وجـدوا عندها مليونا وثمانمائة ألف دينار ذهبي .

وكانت السيدة أم الخليفة المقتدر تجلس للنظر في المظـالم ، فـي مكان بنته في الرصافة ، فإذا تخلفت عن مجلسها هـذا أنـابت قهرمانتـها "ثومال". وأدى تدخل هذه السيدة في شئون الدولة إلى أن ينظر الناس إلـى الخلافة والخلفاء نظرة احتقار . وقدنجحت هذه السيدة في عزل الوزير بـن الخصيب وصادرت أمواله في سنة 314 هجرية .

*

عن عصر الخلافة العباسية ، ورثنا أربع قوائـم عـن خراجـها وثروتها. هي قوائم: الجهشياري، وابن خلدون، وقدامة بن جعفر ، وابـن خردانبة، وهذا الخراج في قائمة الجهشياري بلـغ (530 مليـون درهـم) و(530 مليون درهم) في قائمة ابن خلدون ، و(393 مليون درهم) في قائمة قدامة ابن جعفر، و(335 مليون درهم) في قائمة ابن خردانبة. وتنسب هـذه القوائم إلى عصر هارون الرشيد ، صـاحب المقولـة السـائرة للسـحابة "أمطري حيث شئت فسوف يأتيني خراجك". وكان هذا الخراج يجبى مـن 43 إقليما تمتد من تخوم الصين وأواسط الهند، إلى تخوم المغـرب (بعـد استيلاء عبد الرحمن الداخل الأمـوي علـى الأندلس، والأغالبـة علـى المغرب). وبوسعك أن تضع أمام أرقام هذه القوائم ثلاثـة أصفـار علـى الأقل، لتعرف قدرتها الشرائية بأسعار اليوم، وعليك أن تضع في الاعتبـار الفارق بين العصر الوسيط والعصر الحديث في القدرة الإنتاجية .

*

وفي عصر الخلافة العباسية ، كثرت الضياع . وشاع نظام التقبل أو الضمان ، وشاع نظام الإلجاء والإيغار . وتفشت هدايا النيروز .

ففي هذا العصر ورث العباسيون ضياعا عديدة واسعة ، كـانت لبني أمية وأتباعهم . وأضاف إليها العباسيون ضياعـا جديـدة. أضعـاف الضياع الأولى ، عن طريق إحيـاء الأرض المـوات . أو الشـراء ، أو المصادرة للأراضي من عهد الرشيد إلى عهد المتوكل . فاتسعت إلى مـدى بعيد أملاك الأسرة العباسية عامة، والخليفة خاصة .

ومن هذه الضياع ضياع خاصة ، وضياع عباسية ، وضياع مستحدثة، وضياع فراتية ، وضياع عديدة الأسماء تحدث عنها **جرجي زيدان** في كتابه "تاريخ التمدن الإسلامي".

ومن هذه الضياع كانت ضياع **الخيزران**، أم الهادي والرشيد، وقد بلغت غلتها في العام مائة وستين مليون درهم ، وضيعة **محمد بن سليمان بن علي** ، والي البصرة ، وكانت قيمة غلتها، في كل يوم، مائة ألف درهم.

وحين صادر الرشيد أموال هذا الوالي وجد ماله السائل فقط (دون الضياع والدور والمستغلات الأخرى) أكثر من خمسين مليون درهم .

وحين صادر الرشيد أموال الأخوين البرمكيين جعفر ويحيى ، وجدها أكثر من خمسين مليون درهم ، عدا الضياع، والدور، والرياش ، على كثرة ما أنفقه وأسرف في إنفاقه الإخوان البرمكيان .

وكان أغلب من ولوا مناصب الكتابة ، والوزارة ، يعملون جهدهم ليكونوا من الأثرياء وأصحاب الضياع ، سواء أكانوا من العرب ، أم من الفرس ، أم من الأتراك . فوجدت، في العصر العباسي ، الملكيات الكبيرة، والإقطاعيات الواسعة . وذلك يعني سوء توزيع الأرض الزراعية في العالم الإسلامي العباسي الكبير، وقلة الملكيات الصغيرة جدا، وكثرة الأجراء الزراعيين الموسميين وكثرة المشردين بين القرى، ينتظرون فرص العمل ، ويمدون أيديهم بالسؤال ، وينتظرون الصدقات.

*

وفي عصر الخلافة العباسية ، شاع نظام التقبل ، أو الضمان ، أو الالتزام أكثر مما كان موجودا في العصر الأموي ، بل إنه راح يتزايد منذ عهد الخليفة المنصور إلى أن سقطت هذه الخلافة وعاصمتها في أيدي المغول.

كان الخليفة يكتب إلى واليه على إقليم من الأقاليم ليضمن له خراج إقليم على مبلغ معين ، فإن قبل ولي الخراج وإن لم يقبل عزل وأعطى لسواه، فقد رفض **محمد بن الأشعث** والي المنصور على مصر أن يقبل ذلك الضمان فعزل ، وقبل ذلك **محفوظ بن عبد الرحمن** ذلك الضمان للرشيد فولي خراج مصر .

وكان الخلفاء يطلبون هذا الضمان من ولاة خراجهم ويطلبه هؤلاء الولاة ممن دونهم من العاملين بالخراج ، مدعين أنهم سيحصلون عليه بلا سوط ولا عصا .

وكان ذلك الضمان مرفوضا من فقهاء العصر العباسي، لمخالفته لمبادئ الشريعة الإسلامية ، ولأنه يؤدى إلى ظلم الفلاح أيا كان دينه، وعلى رأس هؤلاء الفقهاء كان **القاضى أبو يوسف** تلميذ أبى حنيفة ، وقاضى الرشيد .

ولقد وصل نظام التقبل أو الضمان أو الالتزام إلى أن يصبح هو النظام السائد فى القرن الثالث الهجرى ، التاسع الميلادى . فكان "**الفضل بن مروان**" ملتزم إقليم الأهواز على تسع وأربعين مليون درهم ، وكان **آل طاهر** ملتزمين بإقليم خراسان وأعمالها على أربع وأربعين مليون درهم.

وفى عصر الخلافة العباسية ، كان والى خراج مصر ، يجلس فى جامع عمرو بن العاص بالفسطاط فى النصف الأول من القرن الثالث الهجرى ، وقد اجتمع حوله الملتزمون من قبله ، بأراضى مصر قادمين من القرى والمدن . وينهض رجل كلفه الوالى ، وينادى على البلاد صفقات صفقات ، فى صورة مزادات ، مدتها أربع سنوات . ومن يرسو عليه مزاد الالتزام كان يعود إلى مدينته أو قريته ، ويتولى سائر وجوه الأعمال بها من زراعة وإصلاح جسور، وتحصيل الخراج من المزارعين فى أقساط . وقد ظل هذا النظام معمولا به فى مصر ، إلى أن أبطله **أحمد بن طولون** فى جامعه ، إثر انشقاقه بمصر عن الدولة العباسية .

وفى عصر الخلافة العباسية . شاع أيضا نظام الإلجاء والإيغار أكثر مما كان شائعا فى العصر الأموى، فكان المزارع الضعيف "يلجأ" بأرضه إلى أمير أو غنى . محتميا به ، فيكتب باسمه أرضه ، ويقوم الأمير أو الغنى بدفع خراجها عنه. وكانت النتيجة دائما هى أيلولة هذه الأرض إلى ذلك الأمير أو الغنى ، أو إلى ورثتهما من بعدهما . وهو نظام كان موجودا قبل الخلافتين الأموية والعباسية فى مستعمرات الروم ، وبلاد الفرس ، وبذلك يتحول صاحب الأرض إلى مزارع بالأجر ، فى أرضه ، أو فى سواها. وكان المزارع الضعيف يفر بنفسه وأرضه ، من والى الإقليم ، فيؤدى خراج أرضه مباشرة إلى الخليفة نفسه ، وغالبا كان ذلك يحدث من المزارع الذى يحيى أرضا مواتا ، مجدبة، شاسعة المساحات،

مترامية فى الفلوات . وعادة ما تكون هذه الأراضى فى أطراف الدولة ، على حدود بلاد العدو.

ومن أمثلة الإلجاءات ، ما فعله أبو أيسوب الموريانى وزير المنصور ، حين جاء إليه رجل مزارع من الأهواز. قال له الأهوازى : إن ضيعتى بالأهواز. وقد حمل على فيها العمال ، فإن رأى الوزير أن يعيرنى اسمه ، أجعله عليها ، وأحمل إليه فى كل سنة مائة ألف درهم . فقال له أبو أيوب : قد وهبت لك اسمى ، فافعل به ما بدا لك .

وحال الحول فأحضر الأهوازى مال ضيعته مائة ألف درهم إلى أبى أيوب ، وخرج شاكرا أبا أيوب. واندفع أبو أيوب يبكى من فرط سروره ، وخوفه من زوال النعمة .

والقاسم ابن أمير المؤمنين الرشيد ، ووالى جرجان وطبرستان وقزوين ، ألجأ إليه أهل زنجان ضياعهم، تعززا بـه ، ودفعا لظلم ولاة الخراج عنهم ، ولمكاريه الصعاليك ، فصاروا مع الوقت مزارعين فى ضياعهم ، وأصبحت أراضيهم ضياعا عباسية . وكذلك فعل أهل الشعيبية على ساحل الفرات ، جعلوا ضياعهم لعلى بن الرشيد ، فى خلافة الرشيد ، فصاروا مزارعين له فيها، وقد كانوا مالكين لها. وخفف عنهم ابن الرشيد، فجعلها عشرية من الصدقة، وقاسم أهلها على النصف.

ومن أمثلة الإيغارات ، إيغارات يقطين، وكان يقطين صاحب الدعوة للعباسيين عند حدود الدولة العباسية مع الروم، فأوغرت له ضياع بأراضى الحدود، يحيى مواتها ، ويؤدى خراجها أعشارا، وعجز يقطين عن السداد فى الميعاد. فصودرت ضياعه فصارت ملكيتها إلى بنى العباس.

وقد أمر المتوكل فى القرن الثالث الهجرى بإبطال تلك الإيغارات فأبطلت.

وفى عصر الخلافة العباسية ، كانت الهدايا تهدى فى أعياد النيروز إلى الخلفاء ، والوزراء ، والولاة ، والكتاب. أهدى أحمد بن يوسف وزير المأمون، إلى المأمون فى يوم عيد نيروز ألف ألف درهم فقبلها منه، وضمها إلى ماله .

وأهدى الناس فى يوم نيروز هدايا فيها جامات من ذهب وفضة إلى خالد بن برمك .

وكان يوم النيروز هو أول يوم تستفتح فيه جباية الخـــراج، وأول يوم فى السنة الفارسية، وأجل أعياد الفرس ، وبدء سنتهم المالية ، وقلدهـــم العباسيون فجعلوا بدء السنة الفارسية موعد جمع الخراج من أرجاء الدولـــة العباسية وقد ترتبت على هذا الموعد مشاكل كثيرة ، بسبب اختلاف موعــد بدء هذه السنة كل 116 سنة، وبسبب كون الشهر الفارسى ثلاثين يوما.

* * *

الفصل الخامس

الفتن والثورات في خلافات القهر

-1-

فى خلافة بنى أمية التى دامت تسعا وثمانين سنة ، صار الخوارج حزبا سياسيا يساريا يمثل جمهوريين ذوى مبادئ ديمقراطية متطرفة ، فى مواجهة حزب خلافى ملكى يمينى استبدادى، يقوم على تقوية الدولة بالتوسع الحربى ، وبمزيد من الضرائب ، وبالقهر للخصوم بالحيلة والدهاء حينا ، وبحد السيف حينا آخر .

ولأن الخوارج كانوا يعدون مرتكب المعاصى كبيرة كانت أو صغيرة كافرا ، تجب استتابته ، ويجب أن ينكر معاصيه، لتصح استتابته، فقد كانوا قساة فى التعامل مع الخصوم ، حكاما كانوا أو رعايا ، عربا كانوا أو موالى، لا يعرفون معهم شفقة ولا رحمة ، مع شيخ أو امرأة ، أو طفل رضيع ، أو نفس ألهمت التقوى ، كما ألهمت الفجور ، ومنحت العقل، كما منحت الشهوة للجنس ، وللمال ، وللسلطة.

ولقد بلغ عدد فرق الخوارج عشرين فرقة ، أخطرها وأكبرها خمس فرق: الأزارقة أتباع نافع بن الأزرق، والنجدية أتباع ناجد بن عامر الحنفى ، والبيهسية أتباع أبى البيهس جابر، والأباضية أتباع عبد الله بن أباض التميمى، والصفرية أتباع زياد بن الأصفر. وكانوا جميعا ، فى مواجهة الغنى والترف الفاجرين ، زاهدين فى حطام الدنيا ، وقساة مع أهل الدنيا ، وأعداء للأمويين وللشيعة العلويين والزبيريين ، ويستحلون دماء هؤلاء وهؤلاء ، ودماء من ليسوا معهم ، ولا مع خصومهم من عامة الناس.

ولذلك راحوا يحاربون الشيعة والأمويين معا، طوال عهد بنى أمية. وكان الأمويون أبغض إلى الخوارج من الشيعة، ومعاوية أبغض إلى الخوارج من على. فقد اتخذ الخلفاء الأمويون لأنفسهم القصور والحراس والحجاب ، ولم ينالوا الخلافة عن إجماع من المسلمين ورضا منهم.

والعلويون الشيعيون يريدون الخلافة بدورهم حكما ملكيا، وراثيا يقوم على العصبية القبلية القرشية ، ومثلهم، كان هؤلاء العباسيون الذين يعملون تحت الأرض ، ويحفرون القبور لبنى أمية ، وعهد بنى أمية.

ولقد استفحل خطر الخوارج فى عهد عبد الملك بن مروان ، بالعراق، إلى أن قضى عليهم **الحجاج بن يوسف الثقفى** ، والى عبد الملك على العراق ، ثم عادوا إلى الظهور والقوة فى عهد **مروان بن محمد** ، آخر الخلفاء الأمويين ، فعجلوا بنهاية الدولة الأموية ، مع الشيعيين والعباسيين والموالى.

*

وطوال عهد خلفاء بنى أمية ، نشبت الحروب الأهلية بين الأمويين والخوارج ، والشيعة، والزبيريين؛ وبين الخوارج والشيعة ، وبين قبائل الشمال المضريين وقبائل الجنوب اليمنيين ، وبين العرب والموالى، إلى أن انفجرت العاصفة الكبرى ، واحتشد فيها الشيعيون والفرس، يقودهم العباسيون ، فكانت نهاية دولة بنى أمية ، ولم تتوقف هذه الحروب الأهلية، بسبب السياسة ، أو المخالفة فى المعتقد ، أو المطالبة بالخلافة ، فى تاريخ بنى أمية، سوى سنوات قليلة متناثرة.

الخوارج قاتلوا معاوية ، وابنه يزيدا الأول، وقاتلوا عبد الملك بن مروان، ثم هدأوا آمنين إلى عدل **عمر بن عبد العزيز**، ثم عادوا إلى الصراع مع الأمويين، فى أواخر الدولة الأموية.

وكانت الحرب سجالا بين الخوارج والأمويين يهزمون مرة ، وينتصرون مرة ، ليهزموا مرة أخرى. ولقد تحالف الخوارج أحيانا مع الزبيريين، ضد الشيعيين والأمويين معا.

والشيعيون قاتلوا **يزيد بن معاوية** لقتله الحسين بن على (فى كارثة كربلاء) الثائر على معاوية لنقضه العهد مع أخيه الحسن. وضاعف من ثورتهم تدمير يزيد للحرمين المدنى والمكى بالأحجار والنيران ، وكرات النفط الملتهبة تقذفها المجانيق ، وإباحة مدنيتى مكة والمدينة للجنود الشاميين. ثم قاتلوا **عبد الملك بن مروان** بقيادة المختار بن عبيد الثقفى للأخذ بثأر الحسين ، متحالفين مع الزبيريين ، وهزموا جيش عبد الملك بالعراق ، وأرسلوا برأس قائده إلى ابن الزبير.

وحين استفحل أمر المختار انفسخ الحلف بين الزبيريين والشيعيين، وهزم جيش مصعب بن الزبير جيش المختار ، وقتله مع سبعة آلاف من المطالبين بدم الحسين.

وقاتل الشيعيون الأمويين بقيادة زيد بن على بن زين العابدين، فى عهد **هشام بن عبد الملك**، وكانوا من جند الكوفة. وحين القتال ، لم يبق معه من جنده سوى القليل ، فقتل زيد معهم، وكان قاتله هو القائد الأموى يوسف بن عمر.

والزبيريون ، أتباع عبد الله بن الزبير ، ظهروا لأول مرة بمكة، فى خلافة **يزيد الأول بن معاوية** سنة (63 هجرية)، وكان عبد الله هذا يرى نفسه أحق بالخلافة فى عهد على بن أبى طالب ، وأحق بالخلافة فى عهد معاوية ، فأمه أسماء بنت أبى بكر ، وخالته عائشة رضى الله عنها ، ولقد ظل يعمل لذلك اليوم منذ أن نقض معاوية عهده مع الحسن، وأخذ البيعة بالخلافة من بعده لابنه يزيد ، إلى أن قتل يزيد الحسين في كارثة كربلاء ، عندئذ دعا ابن الزبير لنفسه ، ولقيت دعوته نجاحا عظيما فى بلاد العرب والعراق. ولقد عكر الزبيريون بالحروب صفو الدولة الأموية منذ غزوها لمكة والمدينة، طوال عشر سنوات ، إلى عهد عبد الملك بن مروان ، وقتل وهو يقاتل فى شجاعة نادرة.

•

وروح العصبية بين القبائل العربية ظهرت عقب وفاة يزيد بن معاوية ، وانتقال الخلافة إلى **مروان بن الحكم**، وظلت مستعرة بين القبائل المضرية والقبائل اليمنية، أو بين الشمال والجنوب ، طوال ما يقرب من ثلاثين سنة إلى عهد الخليفة **عمر بن عبد العزيز** ، فقد سكنت فى عهده الفتن، مدة سنتين وسبعة أشهر ، هى فترة خلافته، ثم عادت لتستعر من جديد بين عرب الشمال والجنوب، إلى نهاية دولة بنى أمية ، وكانت من عوامل نهايتها الدامية.

•

والموالى الذين خضعوا للإسلام بالإسلام ، أو بالطاعة والجزية، حتى وإن أسلموا ، أزعجهم تعصب الأمويين للعرب والعربية ، ونظرتهم إليهم نظرة احتقار وازدراء ، لاعتقادهم أنهم أفضل الأمم ، وأن لغتهم أفضل اللغات ، فثارت فى الموالى روح الشعوبية، وانتهزوا الفرص لتأييد

كل معارض للأمويين من الزبيريين والخوارج والشيعيين ، ولم يهدأوا إلا فترة وجيزة في عهد **عمر بن عبد العزيز** ، عادوا بعدها لثوراتهم ضد الأمويين ، وتأييدهم لمعارضيهم. وأحسن العباسيون الاستعانة بهم في خاتمة المطاف.

والمؤرخون يرجعون أسباب سقوط الخلافة الأموية إلى أسباب أربعة: أولها تولية العهد لاثنين ، فقد ألقت هذه الطريقة بذور الشقاق بين أفراد البيت الأموى، وأورثت قلوبهم الحقد والبغضاء، فالسابق من وليي العهد يعمد إلى إقصاء الثاني من بعده ، ليجعل ولاية العهد لابنه. ولقد قلدهم في ذلك القواد، والعمال، فشاعت روح الصراع بين القواد ، والعمال، والولاة ، في حواضر الدولة الأموية.

وأول من سن هذه السنة هو الخليفة الأموى **مروان بن الحكم**.

وثانيا: ظهور روح العصبية بين القبائل العربية ، إثر وفاة يزيد بن معاوية ، الخليفة الأموى الثانى ، فقد ظهر الصراع السياسى والحربى، لأول مرة بين اليمنيين من أهل اليمن ، والمضريين من أهل الحجاز والشام، أى بين عرب الشمال ، وعرب الجنوب. وامتد هذا الصراع إلى أرض الأندلس، وكان هذا الصراع فيما بعد السبب الأول فى القضاء على الوجود العربى بالأندلس.

ثالثا: انغماس بعض الخلفاء الأمويين فى الترف مثل: **يزيد بن معاوية، ويزيد بن عبد الملك ، والوليد بن يزيد بن عبد الملك** .

رابعا: حين ولى معاوية بن أبى سفيان خلافة المسلمين الأموية ، قال برضا وزهو : أنا أول الملوك. وفى ظننا أنه كان يدرك أن خلافته لم تكن خلافة شورى ، وإنما كانت خلافة قهر بالكيد والحيلة ، والسياسة والسيف، والغلبة ، وأنه لم يجعلها من بعده شورى ، فسوف يجعلها ملكية تورث ، وتتقنع بقناع الخلافة ، ولسوف تكون من بعده خلافة قهر وراثية، ترث ما وراء بلاد الفرس إلى حدود الصين ، وما بعد بلاد مصر إلى شمال الأندلس، وتسعى لأن ترث عرش بيزنطة، وترثها بجيوش تتحرك تحت راية الجهاد لنشر الإسلام، على حين تجبى قصور الخلافة أفياء وغنائم الحروب ، وخراجات البلاد المفتوحة، وزكواتها ، وعشورها وضرائبها، من حدود الصين إلى جبال البرانس، إلى بيت المال فى دمشق.

ولم يكن ثمة فرق يذكر فى هذا البيت بين مال بيت المال ، وبيت مال الخليفة ، فالخليفة هو الآمر الوحيد، والمراقب الوحيد، لبيت المال، ويتداوله من بعده الخلفاء خليفة إثر خليفة ، فهو الملك الإمام ، أو هو الخليفة السلطان للدنيا والدين.

ولم يكن معارضو الخلافات الأموية بخير منها ، فهم أيضا يطلبونها، لتكون لهم، هى وبيت المال ، ويريدونها مثلهم خلافات وراثية إمامية ، يستوى فى ذلك الشيعيون والزبيريون ، تاركين للخوارج الحلم بخلافة شورى وخلافة إمامية للدنيا وللدين، إن وجدت رجلها مرة مثل **عمر بن عبد العزيز**، فلن تجده مرات مثل سائر خلفاء بنى أمية. وفى هذه المرات سيرتكب الخليفة ومعارضوه معا، وبذات الروح الخلافية ، عشرات المذابح بالحروب الأهلية، فلم تكن الشورى قد وجدت طريقها الشرعى الكامل بعد، بالانتخاب الحر لكل المواطنين، لاختيار حاكم لا إمام، حاكم يرعى مصالح الناس ، ويسعى للعدل، لشعب أفراده مواطنين فى دولة ، لا رعايا فى خلافة .

وويل لأمة يعتقد حاكمها ، بعد الخلفاء الراشدين ، ومحنة عثمان وعلى ، أنه حاكم للدنيا وإمام للدين. ويل لحاكم يسعى به البعض إلى الإمامة، فيحمل أوزارها حيا وميتا ، كما قالها ذلك العاقل المريض **معاوية الثانى بن يزيد**، وحفيد معاوية بن أبى سفيان.

حين قامت الخلافة العباسية ، أعلنت على لسان أبي العباس السفاح، أنها ستحكم بالعدل. وتقيم الشرائع ، وكانت في عنفوانها بعنفوان الثائرين ، وعاشت في مأمن نسبي من أصحاب الفرق والمذاهب، طوال ربع قرن ، إلا ما كان من صراعات بين الأبطال الفرس والعرب، الذين اشتركوا معاً، وفرضوا الخلافة العباسية فرضا بالسيف والسوط ، والتعذيب والقتل، إلى أن جاءت خلافة المهدى الخليفة العباسي (158 – 169 هـ 775 – 785م) عندئذ انقضى عهد الشدة والقمع، وبدأت فترة انتقال إلى عهد الاعتدال واللين، وعندئذ اكتشف الصامتون المنتظرون أن العدل لم يتحقق ، وأن الشرائع لم تقم، وأن حكم خلافة قهر آخر قد سيطر ، وأن الدين لم يكن إلا شعارا رفعه بنو العباس ، ليستندوا إليه في حكمهم، ويقيموا خلافة وراثية ، أو حكما أتوقراطيا ، من ألوان حكم الأسر الحاكمة التي سادت العالم الإسلامي، منذ بدء الخلافة الأموية.

وبرغم إعادة المهدى للأموال التي كان قد صادرها أبوه : أبو جعفر المنصور ، إلى أهلها، وإطلاقه سراح العلويين الذين كان قد حبسهم أبوه، وعفوه عنهم. وبرغم إغداق المهدى الأرزاق عليهم ، وإفراجه عن أكثر المسجونين، فقد نشبت في عهده الثورات ، منذ العام الأول لحكمه الخلافي.

في مصر ثار أهل الحوف قرب بلبيس، وقتلوا عامل المهدى عليهم، ودامت هذه الثورة طوال عشر سنوات . ولم يتمكن الفضل بن صالح بن علي العباس من القضاء عليها، إلا بعد وفاة المهدى .

وفي بلاد الشام ثار عبد الله ابن مروان بن محمد الأموى سنة 161 هـ، ونجح جيش الخليفة العباسي في هزيمته ، وأسره، وحبسه ، ثم أفرج المهدى عنه، وأغدق عليه الأرزاق عملا بسياسة سيف المعز وذهبه.

وفي الجزيرة بشمال العراق ثار عبد السلام بن هشام اليشكري ، واشتدت شوكته ، ولكنه هزم وقتل في قنسرين .

وفي الموصل ثار ياسين التميمي ، واستولي على أكثر ديار ربيعة ومضر، إلي أن حلت به الهزيمة.

وكانت أشد هذه الثورات خطرا ، وأقواها بأسا ، ثورة الزنادقة ، بالرأى ، وبالدعوة إلي نوع من الديمقراطية الحرة حرية مطلقة ، وبالسيف أحيانا، وقد استمرت ثورة الزنادقة تنخر في جسم الدولة العباسية ، إلى نهاية عصر الخلافة العباسية ببغداد.

وفي عهد الخليفة الهادى (169 – 170هـ – 785 – 786م) ثار الزنادقة والخوارج ببلاد الجزيرة شمالي العراق ، وتمرد العلويون، وأطل بقايا بنى أمية المستترين برءوسهم ، وراح الهادى يمثل بهم وينكل ، كلما وقع أحدهم تحت يده.

وفي عهد الخليفة هارون الرشيد (170 – 193هـ 876– 809م)، تفجرت الثورات.

ثار الخارجي الوليد بن طريف الشارى الشيباني بالجزيرة ، وانتصر على جيوش الرشيد أكثر من مرة ، وقتل والي نصيبين ، وعاث فسادا في أرمينية وأذربيجان ، ثم عاد إلي الجزيرة وعبر نهر دجلة ، حتى وصل إلي حلوان، فتصدى له قائد الرشيد يزيد بن مزيد الشيباني ، بطل موقعة "الراوندية" . وهزم الوليد وجيشه. وكان الوليد الثائر قد رمى الخلافة العباسية ،والرشيد ، بالجور والظلم ، وأعلن أنه سيخلص المسلمين من هذا الجور والظلم ، لكنه قتل في المعركة .

وفي افريقية ، استمرت قبائل البربر تنازع السلطة العباسية بالمغرب طوال أربع سنوات ، تحت راية الأدارسة ، إلي أن هزمهم هرثمة بن أعين قائد الرشيد. ولم يجد الرشيد بدا من إقامة دولة حاجزة بينه وبين الأدارسة في المغرب، هي دولة الأغالبة بتونس ، لكن هذه الدولة ما لبثت أن استقلت بدورها عن الخلافة العباسية ، واتخذت من القيروان عاصمة لها ،ولم تعد تابعة للعباسيين إلا بالاسم فقط .

وفي سوريا ، استمرت المنازعات القديمة بين اليمنيين والمضريين. وصارت دمشق مسرحا لحروب أهلية بين الفريقين ، ثم خمدت وحدها. ثم عادت للظهور لتستمر الحروب الأهلية بين الفريقين

طوال عشر سنوات ، إلى أن تمكن موسى بن يحيى البرمكى والى الشام من عقد الصلح بين الفريقين .

وفي خراسان ثار أهل خراسان على سياسة الظلم والعسف واغتصاب الأموال ، التي كان يمارسها والى خراسان : على بن عيسى بن ماهان . وكان ابن ماهان يسكت الرشيد ويخدعه عما يفعله بأهل خراسان، بالهدايا والطرف ، إلى أن لبى الرشيد استغاثة أعيان خراسان ، فخرج لحربه وعسكر بالرى ، لكن والى خراسان خدع الرشيد مرة أخرى بهداياه ، وراح ينكل بمن استغاثوا بالخليفة . وعندئذ ثار رافع بن ليث بن نصر بن سيار ، وقتل عامل ابن ماهان على سمرقند ، وقتل عيسى عامله سمرقند. وهجم رافع بأهل سمرقند على قصر والى خراسان وأميرها على بن ماهان واستولى على مافيه . فهرب ابن ماهان ، وعندئذ فقط أرسل الرشيد بقائده هرثمة بن أعين ، فقبض على ابن ماهان ، وأتباعه، وصادر أموالهم . لكن رافعا لم تهدأ ثورته، مستهدفا الاستقلال بخراسان عن الخلافة العباسية، فخرج الرشيد بنفسه لحرب رافع ، لكنه مات في الطريق بطوس، واستمر رافع على ثورته ومناهضته للخلافة إلى عهد المأمون .

وفي عهد الرشيد ، تخلص الرشيد من سيطرة الأسرة البرمكية على الخلافة ، وعلى الدولة ، ومن ميلهم المستتر للعلويين المنازعين للعباسيين ، والمطالبين بالخلافة ، وبذلك التخلص رجحت قوة الجبهة العباسية في مواجهة الجبهة العلوية ، وكفة العرب على كفة الفرس في الدولة .

ولم يكن النزاع فيما بعد، بين الأمين العربى الأم ، والمأمون الفارسى الأم، سوى إعادة وتصعيد للنزاع بين العرب أنصار الأمين، والفرس أنصار المأمون .

واستمر هذا النزاع طوال عهدى الأمين ، والمأمون، إلى أن أدخل الخليفة المعتصم العنصر التركي المسلم إلى ساحة الصراع ، ليكونوا أعوانا للعباسيين ، فكانوا وبالا على العباسيين ، والعلويين معا ، وعلى الفرس والعرب معا، وعلى الخلافة نفسها ، فبات الخلفاء أنفسهم أسرى في قصورهم، وتحت رحمتهم .

وفي عهد المأمون (198 – 218 هـ / 813 – 833م)، انسلخت بلاد تهامة بجزيرة العرب عن الخلافة العباسية، أكثر من ثلاثة قرون ، فقد

أرسل المأمون إليها بحمد الزيادى واليا عليها، ليقضى على المتشيعين بها فشيد العاصمة زبيد، وأصبح أشبه بملك مستقل ، يتوارث أبناؤه وأحفاده الحكم من بعده فى بلاد تهامة، وكانوا فى الوقت نفسه يؤدون الخراج للعباسيين ، ويقيمون الخطب فى الجمع باسم العباسيين . وانسلخت بذلك بلاد تهامة عن الدولة العباسية.

وفى اليمن ، نجح الزياديون فى عهد المأمون فى الاستقلال باليمن، مثلما استقل الأدارسة بالمغرب، والأغالبة بتونس، فى عهد الرشيد. وكان المنسخلون جميعا علويين .

وفى العراق استمر نصر بن شبث، نصير الخليفة الأمين ، بعد مصرع الأمين، فى شق عصا الطاعة على الخليفة المأمون ، لاتخاذه الخرسانيين دون العرب أنصارا له . وقد سير المأمون بعد مصرع الأمين قائده طاهر بن الحسين لمحاربة نصر بن شبث. وولى العراق الحسن ابن سهل . فأحرزت جيوش نصر النصر على قائد المأمون وواليه معا، إلى أن قدم المأمون إلى بغداد ، فحاصرت الجيوش نصرا حتى هزمته، بعد أن حارب جيوش المأمون طوال خمس سنوات .

وعلى طريق البصرة ، أفسد الأمن على المأمون أخلاط من الزط الهنود، عرفوا بالنور ، والغجر ، وقطعوا الطريق على طول سواحل الخليج الفارسى، واستولوا على البصرة . وفشل قواده قائدا بعد قائد فى قمع فتنة الزط طوال عهد المأمون ، فقد كانوا يعيشون فى المستنقعات حول البصرة.

وفى مصر ثار المصريون على العباسيين سنة 210 هـ. فأخمد عبد الله بن طاهر ثورتهم ، واستولى على الفسطاط ، ولم يلبث المصريون أن عادوا إلى الثورة ، بعد عودة بن طاهر إلى بغداد ، وساند العرب من أنصار الأمين ثورة المصريين . وفشل الأفشين ، قائد المأمون ، فى قمع ثورة المصريين. فتحرك المأمون بنفسه لقمع هذه الثورة ، ونجح فى قمعها بعد سنين .

وفى العراق قامت ثورة أخرى بزعامة أبى السرايا الداعية العلوى وهزم جيوش الحسن بن سهل . فوجه الفضل بن سهل وزير المأمون إليه هرثمة ابن أعين على رأس جيش كبير قمع به حركة أبى السرايا.

ورفض هرثمة ابن أعين تولية الخليفة على الشام والحجاز مكافأة له، وتوجه إلى مرو حيث كان المأمون يقيم، وأطلعه على ما في الدولة من فساد، وعلى سوء سياسة وزيره الفضل في البلاد، فكان مصيره حبس المأمون له، ثم قتله.

وأغضب قتل المأمون لهرثمة رجال الجيش في بغداد ، فثار أهل بغداد على واليهم الحسن بن سهل ، وخلعوا المأمون، وأقاموا عمه إبراهيم بن المهدى خليفة، فظل خليفة بها طوال عامين . واضطر المأمون الذى كان قد بايع على الرضا العلوى بتوليته العهد إلى إرضاء الهاشميين . ودس لوزيره الفضل بن سهل من قتله بالسم ، ثم دس لولى عهده "على الرضا" ، من قتله بالسم ، ولذلك استقبل أهل بغداد المأمون عند عودته إليهم بالترحاب. وهرب إبراهيم بن المهدى ، إلى أن عفا عنه ابن أخيه المأمون، وأسند المأمون الوزارة إلى الحسن بن سهل بعد أخيه الفضل ، وتزوج من ابنته بوران .

وفى عهد المعتصم (218 – 227هـ / 833 – 842م) ، استمرت فتنة القول بخلق القرآن التى حمل عليها المأمون الناس ، وكان المأمون قد اعتنق مذهب الاعتزال ، وزاد عليه **المعتصم** المعتزلى فى إلحاق الأذى بالعلماء الذين رفضوا القول بخلق القرآن ، فلم يبق عالم أو قاض لم يتعرض للضرب أو لخطر الضرب بالسياط والتعذيب والسجن والقتل، إذا لم يقل بخلق القرآن.

وكان المأمون قد زوج ابنته أم الفضل ، إلى على الرضا ، فأنجبت له ابنا هو **الجواد**. وخشى المعتصم أن تحدث **الجواد** نفسه يوما بالمطالبة بالخلافة، لأنه عباسى الأم والجد ، علوى الأب والجد ، فدس له من قتله بالسم.

وخرج العلوى **محمد بن القاسم بن الحسين بن على** على المعتصم ، ورحل عن الكوفة إلى خراسان ، فرارا من بطش المعتصم بالعلويين ، فانضم إليه أكثر أهلها ، وحارب جيوش المعتصم معركة بعد معركة إلى أن تدخل عبد الله بن طاهر لدى المعتصم . وأخذ الأمان لمحمد بن القاسم . ولكن المعتصم لم يلبث أن نقض أمانه له ، وحبسه فى سامراء، ثم قتله بالسم.

وكان الزط مستمرين فى فتنتهم لا يزالون بجنوب العراق ، فوجه المعتصم إليهم قائده العربى : **عجيف بن عنبسة** . فقطع المياه عن الأهوار (المستنقعات) التى يعيش بها الزط ، وانتظر إلى أن جفت ، وقاتلهم تسعة أشهر ، وأرغمهم على طلب الأمان ، فاستسلم له 27 ألفا بين رجال ونساء وأطفال ، وحملهم عجيف فى السفن إلى بغداد ، وأمر المعتصم بنفيهم إلى بلاد آسيا الصغرى ، فأسرهم البيزنطيون ، ونفوهم بدورهم إلى أوروبا ، فعرفوا بها باسم النور ، وأقاموا خارج المدن.

ولأن أم المعتصم كانت تركية ، ولأنه لم يعد يأمن للخرسانيين ، ولا للفرس ولا للعرب ، فقد أقام له حرسا خاصا من الترك ، وكون جيشا كبيرا من الترك ، فازعجوا أهل بغداد. وأغدق المعتصم على جنده الأتراك الأموال والهبات والهدايا ، فثار القائد عجيف عليهم وعلى المعتصم ، ودبر للخلاص من المعتصم نفسه. وأغرى العباس ابن المأمون بالخروج على عمه معه ، والمطالبة بعرش أبيه ، واتفق القواد العرب على قتل المعتصم وقائديه التركيين: الأفشيين وأشناس ، حين توزيع الغنائم فى موقعة عمورية .

وسهر العباس بن المأمون ليلة مع المعتصم ، وقد لعبت الخمر برأسه ، فباح للمعتصم بالمؤامرة ، فقبض على مدبريها وقتلهم ، وقتل معهم عجيف ابن عنبسة ، ومنع الماء عن العباس بن المأمون حتى هلك عطشا .

وكانت النتيجة أن المعتصم ازداد سقوطا فى أيدى قواده الأتراك ، وأدى هذا السقوط إلى إقصاء قواد العرب ، وقواد الفرس ، من الجيش العباسى تدريجيا ، وأسقطت أسماؤهم من ديوان العطاء.

وفى عهد المعتصم اشتعلت ثورات الموالى ومنها ثورة : **بابك الخرمى** ، وثورة **المازيار والأفشين** . وكانت ثورة بابك فى بلاد الفرس ، وبلغ جيشه عشرين ألف فارس ، عدا الرجالة.

وهزم جيش بابك جيوشا كثيرة للمعتصم ، وقتل كثيرا من قواده ، واحتل مدنا وقرى عديدة ، وفتك بالناس بلا رحمة ، وبلغ عدد ضحاياه مليون شخص من الرجال والنساء والأطفال ، وكانت قد انضمت تحت رايته رايات الزرادشتيين والمانويين والمزدكيين ، وأنصار أبى مسلم الخراسانى. وكانت غايتهم جميعا تحويل الملك من العرب إلى الفرس ،

ومن المسلمين إلى المجوس، وتمكن المعتصم من القضاء على هذه الثورة بالأتراك.

وأعقبت هذه الثورة ثورة الأفشين والمازيار ، وكان الأفشين رئيسا للمحمرة ، والمازيار رئيسا لجبال شروين، في أطراف بلاد طبرستان، وكانا يسعيان إلى الاستقلال بالمشرق الإسلامي عن الخلافة . وإقامة الفرس من جديد . مثل بابك.

وقد تمكن عبد الله بن طاهر من القضاء على ثورتيهما . وقتل الأفشين مسموما ، ودفن ، ثم أخرجت جثته وصلبت . وقتل المازيار.

وفي بلاد الموصل ثار **جعفر الكردي** بالأكراد ، ضد المعتصم ، وضد الترك ، فأرسل المعتصم جيشا لقتاله ، في العام الذي توفي فيه ، ولم يتمكن القائد التركي من الخلاص من جعفر ، إلا بدس أحد أصحاب جعفر عليه، فقتله.

وفي عهد الواثق (227 – 232 هـ / 742 – 847م) ، ثارت القيسية بدمشق، وحاصروا والي دمشق، وهزم رجاء بن أيوب قائد جيش الواثق الثائرين، في معركة مرج راهط ، وقتل منهم ألفا وخمسمائة.

وفي بلاد الحجاز ثار بنوسليم . ونهبوا الأسواق ، وقطعوا الطرق، وهاجموا جنود والي المدينة . إلى أن قضى عليهم جيش تركي للواثق ، بقيادة بغا الكبير ، فقتل منهم خمسين رجلا، وقبض على الفرجل، وحبسهم بالمدينة.

وفي عدن ثار بنو مرة فتوجه إليهم بغا الكبير ، وقمع ثورتهم وانتهز المحبوسون بالمدينة الفرصة، فحاولوا الخروج من سجنهم، فأحاط بهم أهل المدينة، وقتلوهم عن آخرهم.

وفي العراق دعا الفقهاء إلى عزل الواثق ، وقادهم **أحمد بن نصر**، وحددوا ليلة للهجوم على المعتصم وقواده . واتفقوا على أن يكون بدء التنفيذ بدق الطبول على ضفتي النهر ، وفي الليلة التالية يكون الهجوم، لكن فريق الضفة الشرقية ، سكر ذات ليلة ، ودق الطبول قبل الموعد المحدد، ولم يجاوبهم فريق الضفة الغربية، وعندئذ انكشفت المؤامرة ، وقبض على أحمد ابن نصر وأعوانه . ودارت المناظرة بين الخليفة وبين أحمد بن نصر حول خلق القرآن . وكان مصير أحمد بن نصر وأعوانه القتل معا.

بدأ عصر الخلافة العباسي التركي بعهد المتوكل بالله (232 – 247هـ) وقد بدأ المتوكل عهده بإعادة السنة ، وإيقاف القول بخلق القرآن، لكنه لم يلبث أن أساء إلى نفسه بالعنف الذي عامل به العلويين، وأثار المشاعر بهدمه لقبر الحسين بن علي وما حوله ، وتحويل الأرض المحيطة به إلى مزرعة ، وسوق من يزورون مكان القبر إلى سجن المطبق ، وتوجيه الإهانات إلى العلويين في المساجد، والطرقات .

وراح المتوكل يحلم بنقل الخلافة من بغداد إلى الشام، وجعل العرب عمادا للخلافة ، لكن الوقت كان قد فات لتنفيذ هذا الحلم. فقد فتك الترك به، بالتعاون مع ابنه المنتصر بالله .

وبعد المتوكل غرقت الخلافة العباسية التركية الفتن والثورات . وكان أخطرها ثورة الزنج الطاحنة في عهد المعتصم بالله (256 – 279هـ). وكان الزنج من عبيد افريقية ، وكانوا يعملون بالخدمة بإزالة الملح من الأراضي ، ولم يكونوا يتقاضون من الأجر شيئا . ويقاتون في كل يوم بقليل من الدقيق ، والتمر ، والسويق ، وكانوا على أتم استعداد للخروج على سادتهم، وولاة الأمر عليهم، وينتظرون العثور على قائد . ووجد العبيد الافريقيون هذا القائد في شخص العبد الافريقي علي بن محمد، من أهالي الطالقان، وكان قد أدعى أنه من نسل علي زين العابدين، وأدعى أن العناية الإلهية قد أرسلته لإنقاذ العبيد . ورحل هذا الثائر علي بن محمد مع العبيد الفارين تباعا من القرى والمدن إلى المستنقعات الممتدة بين البصرة وواسط ، وأقلق علي بن محمد الدولة العباسية ، في عهد الخليفة المعتمد بالله طوال 14 سنة.

وقبل هذه الثورة كان علي بن محمد يطوف بالعراق والبحرين وهجر، ويتصل بالعبيد داعيا إلى تحريرهم ، فالتفوا حوله، واستقروا بالبصرة وضواحيها ولحق بهؤلاء العبيد عبيد آخرون غير افريقيين، فروا من سادتهم وولاتهم . ومن الجوع والظلم ، والحرمان من الحرية .

وقاد علي بن محمد أتباعه، واستولى على البصرة ، وذبح كثيرين من أهلها. وخرب مسجدها السني ، واحتل واسط، ورامهرمز . وفشلت جيوش المعتمد التركية في القضاء عليهم . وراحت جيوش الزنج تشن غارات حرب العصابات في العراق وخوزستان والبحرين ، بشكل منظم، وفي جماعات غايتها السلب والنهب . ودامت الحرب بين جيوش العباسيين

والزنج بين عامي (255 – 270) إلى أن قضى عليها القائد الموفق شـــقيق الخليفة المعتمد ، وقد انتقم أحد الزنوج الثائرين من الموفق، باغتياله، بسـهم وجهه إلى صدره، وفر هاربا إلى رامهرمز، فتتبعه العباس بـــن الموفـــق وقتله ثأرا لأبيه.

وبلغ عدد القتلى في المعارك بين الزنوج ، وجيوش المعتمد بـالله، مليونا وخمسمائة ألف قتيل ، من العبيد والسادة معا. وعلقت رأس الثـــائر علي بن محمد على رمح ، وطيف بها في طرقات بغـــداد ومسط معـــالم الزينة. وفي القصور راح الشعراء يشيدون بهذا الانتصار .

وفي عهد الخليفة المعتضد بالله (279 – 289 هـ / 892 – 902م) انزعج الناس لمنع المعتضد الوراقين من بيع كتب الفلاسفة ، والمفكريـــن ، ومنع القصاصين من القص للناس في المساجد والطرقات.

وفي عهد المعتضد بالله ، ثار **عمرو بن الليث** الصفار ، زعيـــم الصفاريين واستولى على كثير من بلاد الفرس، وأسس الدولـــة الصفاريـــة (245 – 290هـ) .

وثار **حمدان قرمط** بالكوفة.

وثار **أبو سعيد الخبابي القرمطي** في البحرين.

وثار **ابن حوشب القرمطي** في اليمن .

ودعا الثلاثة إلى المذهب القرمطي. وقد دامت الثورة القرمطيـــة أكثر من مائتي عام.

وثار **نصر بن أحمد الساماني** ، وأسس الدولة السامانية في بـــلاد ما وراء النهر (261 – 389هـ) .

وتوالى مسلسل الدول المستقلة ، المنبثقة مـــن ثـــورات الخلافـــة العباسية للاستقلال بأراضي وشعوب هذه الدولة ، وإعادة الأمور إلى أسوأ مما كانت عليه قبل الخلافة .

الفصل السادس

أئمة الإسلام بين اضطهاد الفرق وخلفاء القهر

في القرنين الثاني والثالث الهجريين ، الثامن والتاسع الميلاديين، عاش أئمة أهل السنة الأربعة : أبو حنيفة النعمان ، ومالك بن أنس ، والشافعي ، وأحمد بن حنبل.

في هذين القرنين كان الخوارج هم إرهابيو زمانهم ، مثل إرهابيي زماننا، في تنظيمات الجماعات الإسلامية ، وكانوا يمارسون إرهابهم فكرا ، واغتيالات ، وحروبا أحيانا، يكسبونها مؤقتا ، ويخسرونها دائما، ضد غير المسلمين ، وضد المسلمين الذين لا يشايعونهم في أفكارهم، من السنيين والشيعيين، ومن عامة المسلمين ، المخلصين فقط لفرائض الإسلام وأركانه ، دون الدخول في جدل العقائد ، والحكم ، والسياسة ، وضد السلطة الحاكمة للدولة المسلمة ، وضد الفقهاء والوعاظ ، وأئمة الفتوى في العواصم الإسلامية ، تماما مثلما يحدث في زماننا في القرن الخامس عشر الهجري ، العشرين الميلادي.

وفي هذين القرنين ، كانت السلطة الحاكمة في الدولة الإسلامية ، أموية كانت، أو عباسية ، تمارس بدورها الرد على عنف الإرهابيين بعنف مقابل ، والحوار بالجدل مع جدل الإرهابيين في العقائد ، والرد بالتكفير على الاتهام بالتكفير . وتمارس أيضا مثل الخوارج تماما الاضطهاد للفقهاء والقضاة والوعاظ ، وأئمة الفتوى في العواصم الإسلامية ، وتشن الحروب ضد دعاة الفرق الإسلامية ، والسلالات القرشية الأخرى ، المناوئة لسلطة أخرى قرشية حاكمة ، من العلويين ، والعباسيين ، ثم من العلويين ، والأمويين ، والشيعيين الفارسيين .

وبين عنف هؤلاء وهؤلاء ، الفكري والجسدي والاجتماعي، عاني الأئمة الأربعة الكبار ، من الخوارج، لأنهم لا يرضون عن معتقداتهم، ويدينون وسائل عنفهم ، ومن السلطة لأنهم لا يؤكدون ولاءهم لها، ولا يجارونها في سياساتها، ولا يعملون في خدمتها، كي يحققوا حلف السياسة والدين ، ضد المناوئين للسلطة، وضد الغاضبين على السلطة من عامة الناس، تماما مثلما يحدث في زماننا ، في العقود الأخيرة من القرن العشرين.

محن الإمام أبي حنيفة

في القرنين الهجريين الأول والثاني، عاش إمام العقل والقياس، فيما لم يرد به نص قرآني، أو حديث مقطوع بصحته: أبو حنيفة النعمان، مفتي الكوفة، وكان هواه علويا في الباطن والسر. وعاصر أبو حنيفة عصر بني أمية، وأوائل عصر بني العباس، وعانى في العصرين محنتين قاسيتين.

-1-

لم يكد "أبو حنيفة النعمان" يجلس في مجلس شيخه الراحل حماد بن سليمان، فقيها مفتيا بمسجد الكوفة، حتى خرج زيد بن علي زين العابدين، على الخليفة الأموي "هشام بن عبد الملك"، متزعما ثورة من ثورات العلويين ضد الأمويين. وكانت عواطف أبي حنيفة كإنسان وفقيه مع العلويين المضطهدين من بني أمية، فرأى كفقيه مفت أن الثورة على ملك الأمويين أمر جائز شرعا، إذا كانت الثورة من إمام عادل، مثل الإمام "زيد بن علي".

ويروي التاريخ أن أبا حنيفة قال لتلاميذه عن ثورة هذا الإمام: "ضاهى خروجه خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر". فقيل له: "لم تخلفت عنه"؟ فقال: "حبستني عنه ودائع الناس (عندي). عرضتها على ابن أبي ليلى (قاضي الكوفة)، فلم يقبل. فخفت أن أموت مجهلا (دون أن أرد ودائعي إلى الغائبين)".

وفي مرة أخرى قال أبو حنيفة، في معرض الاعتذار عن عدم خروجه مع الثائر زيد: "لو علمت أن الناس لا يخذلونه، كما خذلوا أباه، لجاهدت معه إنه إمام حق، ولكن أعينه بمالي". وبعث أبو حنيفة إليه بعشرة آلاف درهم، قائلا لرسول زيد إليه: "ابسط عذري له".

ولقد انتهت ثورة الإمام "زيد" بمقتله سنة 123 هجرية، وثورة ابنه "يحيى" من بعد بمقتله سنة 125 هجرة، وثورة حفيده عبد الله، بمقتله

سنة 130 هجرية ، واستغرقت هذه الثورات عشر سنوات ، عانى فيها العلويون من الأمويين العذاب ، وتكبد فيها الأمويون من العلويين المشاق . وكانت ثورات يؤازرها العلماء والفقهاء، في السر بالمال، وفي العلن بالتأييد . ثم حان وقت حساب الأمويين لهؤلاء العلماء والفقهاء بالعراق ، بعد القضاء على ثورات العلويين الزيديين (نسبة إلى زيد بن على) في عهد "مروان ابن محمد" آخر الخلفاء الأمويين.

وكان الحساب اختبارا من "ابن هبيرة"، والى الأمويين على العراق، لولاء العلماء والفقهاء لبنى أمية . وقبل علماء الكوفة : ابن أبي ليلي، وابن شبرمة ، وداود بن هند، وسواهم ، إعلان ولائهم العملي لبني أمية، بقبولهم أعمالا شتى في ديوان "ابن هبيرة"، لينفوا الريب عن أنفسهم ، ويتخلصوا مما تورطوا فيه، متخذين التقية دريئة لهم، في وقت اشتدت فيه الفتن بالعراق ، وكادت أن تصير فيه فارس وخراسان للعباسيين، وقد راحت جيوش العباسيين ، يؤازرهم العلويون ، تناوش بالقتال جيوش الأمويين في العراق، وغير العراق.

ودعا ابن هبيرة إليه بأبي حنيفة في ديوان الإمارة بمدينة واسط. وعرض عليه أن يعمل له ، وعنده، أي عمل كان، تحققا من ولائه للخليفة مروان ابن محمد، إن قبل العمل معه، أو تثبتا من اتهامه له ، بالانحياز للعلويين، إن أبى هذا العمل ، وأبى أبو حنيفة أن يلي عملا لابن هبيرة ، فعاد ابن هبيرة يعرض عليه أن يجعل ديوان الخاتم تحت يده ، فلا ينفذ كتاب مهره بتوقيعه إلا من تحت يد أبي حنيفة ، وختمه له بخاتم الإمارة . لكن أبا حنيفة امتنع عن قبول هذه المهمة ، قائلا له:

– كيف أقبل هذا العمل ؟ تأمر أنت بقتل إنسان ظلما، أو مصادرة ماله، وأختمه أنا، فيقتل هذا الإنسان ، ويصادر ذلك المال . هذا لن يكون أبدا.

عندها أقسم ابن هبيرة أمام العلماء أن يسجن أبا حنيفة ويضربه في السجن، إن لم يقبل الخاتم . وتقدم الفقهاء الذين قبلوا التعاون مع ابن هبيرة ، واستأذنوا الأمير في الانفراد بأبي حنيفة ، فغادر الأمير المكان غاضبا .

وقال العلماء لأبى حنيفة:

– إنا ننشدك الله فلا تهلك نفسك. فإنا إخوانك . وكلنـــا كـــارهون لهذا الأمر . ولم نجد بدا من ذلك.

فقال أبو حنيفة بإصرار:

– لو أرادنى أن أعد له أبواب مسجد "واســـط" لـــم أدخـــل فـــى هذا الأمر.

فقال ابن أبى ليلى للعلماء ، ولم يكن لأبى حنيفة محبا ، ولا عـــن فقهه راضيا:

– دعوا صاحبكم . فهو المصيب ، وغيره المخطئ!!

وأمر ابن هبيرة صاحب الشرطة بحبس أبى حنيفـــة . فحبـــس ، وضرب أياما متتالية، فى كل يوم عشرة أسواط، ليرجع عن موقفه . ويئس الضارب الجلاد من أبى حنيفة ، فذهب إلى ابن هبيرة ، وقال له :

– هذا الرجل سيموت من الضرب ، ولن يعدل عن رأيه.

فقال له ابن هبيرة:

– فليخرجنا من يميننا إذا أراد الحياة.

وسأل الجلاد أبا حنيفة أن يعدل عن موقفه ، ويعمـــل مـــع ابـــن هبيرة، فأبى أبو حنيفة مستعدا للاستشهاد . فعاد الجلاد إلى ابـــن هبـــيرة ، برأى أبى حنيفة، فصرخ ابن هبيرة بيأس، وكأنه قد خشى أن يمـــوت أبـــو حنيفة فى سجنه، فيثور من أجله أهل الكوفة ، والموالى ، بل وأهل العـــراق بأسره.

– ألا ناصح لهذا المحبوس ، أن يستأجلنى فأؤجله؟

وأخبر الجلاد أبا حنيفة بما قاله ابن هبيرة. وفهم أبـــو حنيفـــة ، فقال له:

– دعونى أخرج إذن ، واستشير إخوانى وأهل بيتـــى ، وانظـــر فى ذلك.

عندئذ أمر ابن هبيرة بإخلاء سبيل أبى حنيفة . فعاد إلى بيتـــه ، وأعد نفسه وأهل بيته للرحيل، ودوابه لسفر طويل . وهرب ليلا إلى مكة . وكان هروبه فى سنة 130 هجرية.

-2-

وفى العصر العباسى، قرر أبو جعفر المنصور اختبار ولاء أبـى حنيفة لدولته فارسل إليه جائزة قدرها عشرة آلاف درهم وجاريـة ، مـع وزيره "عبد الملك بن حمد". وكان لهذا الوزير رأى جيد، وفيه كرم نفس . وحمل الوزير الهدية ، وذهب إلى أبى حنيفة بها ، لكن أبا حنيفة رفضـها ، مثلما رفض هدايا "الحرة" زوجة المنصور من قبل . وأشفق عليه الوزير ، فقال له مصارحا:

- أنشدك الله . اقبلها . إن أمير المؤمنين يطلب عليك علة (يبحث لك عن سبب) ليوقع بك. فإن لم تقبل صدق عليك ما يظنه بك.

وأصر أبو حنيفة على موقفه ، فقال له الوزير:

- لا عليك من المال ، فقد أثبته فى بند الجوائز . لكـن . اقبـل الجارية منى ، أو .. قل عذرك لأمير المؤمنين .

فقال له أبو حنيفة للوزير:

- قل له : إنى ضعفت عن النساء (أى كبرت) فـلا اسـتحل أن أقبل جارية لا أصل إليها . ولا اجترئ أن أبيع جارية خرجت مـن ملـك أمير المؤمنين.

وعاد الوزير إلى المنصور ، وأخبره بما حدث ، وبما قالـه أبـو حنيفة. واستمع المنصور لوزيره ولزم الصمت ، فما كان ليقتنع بحيل أبـى حنيفة كفقيه ذكى، وعنيد.

وكان فى حاشية المنصور من يحرضه على أبى حنيفـة ، مـن الوشاة والحاسدين والحاقدين ، من رجال الدولة ، بل من الفقهاء أيضـا ، ويجعلونه بين الحين والحين ، فى ظن وشك من أقواله وفتاويه.

روى "تاريخ بغداد" أن المنصور دعا إليه أبا حنيفة ليشهد مجلسـا علميا عنده ، ويشارك فيه . وكان الربيع حاجب المنصور يعادى أبا حنيفة. فانتهز وجوده فى المجلس فرصة ، وقال للمنصور :

– يا أمير المؤمنين . هذا أبو حنيفة يخالف جدك . كان عبد الله بن عباس يقول : إذا حلف شخص على اليمين ، ثم استثنى بعد ذلك بيوم أو بيومين جاز الاستثناء. وأبو حنيفة يقول ، مخالفا جدك : لا يجوز الاستثناء إلا متصلا باليمين .

عندئذ سارع أبو حنيفة بقوله للمنصور ، ببديهة حاضرة:

– يا أمير المؤمنين . إن الربيع يزعم بقوله هذا ، أنه ليس لك في رقاب جندك بيعة.

فقال له المنصور بدهشة:

– كيف؟

فقال أبو حنيفة :

– يحلفون لك حسب قوله مبايعين ، ثم يرجعون إلى منازلهم ، فيستثنون، فتبطل أيمانهم ببيعتك.

وضحك المنصور ، والتفت قائلا للربيع :

– يا ربيع . لا تعرض لأبي حنيفة ، فلن تقدر عليه.

وحين خرج الوزير والفقيه من المجلس قال الوزير للفقيه ، حانقا:

– أردت أن تشيط بدمي (أي : تقتلني).

فقال له أبو حنيفة باسما ، واثقا:

– لا . ولكنك أردت أن تشيط أنت بدمي ، فخلصتك، وخلصت نفسي.

كذلك كان الفقيه "أبو العباس الطوسي" سيئ الرأي في أبي حنيفة. وكان أبو حنيفة يعرف ذلك.

دخل أبو حنيفة يوما مجلس المنصور بدعوة منه، وقد كثر الناس في مجلسه ، فقال "الطوسي" لمن معه:

– اليوم أقتل أبا حنيفة .

والتفت " الطوسي" إلى أبي حنيفة ، وقال له ، وقد ساد الصمت والمنصور يسمع ما يقال :

– يا أبا حنيفة . إن أمير المؤمنين يأمر بان يضرب عنق الرجل، لأمر لا يدري ما هو ، أيسعه أن يضرب عنقه؟

فقال له أبو حنيفة بحضور بديهة مألوفة منه:

– يا أبا العباس . أمير المؤمنين يأمر بالحق أم بالباطل؟

فقال الطوسى بدهشة !
– بالحق طبعا.
فقال له أبو حنيفة :
– انفذ الحق حيث كان، ولا تسل عنه.
والتفت أبو حنيفة ، وقال هامسا لمن قرب منه:
– إن هذا أراد أن يوثقنى فربطته.

*

وجاء يوم قرر فيه المنصور أن يتولى أبا حنيفة له أى عمل كان، فيبين الصريح من نيته . ودعا المنصور إليه بأبى حنيفة ، وكان سور بغداد لا يزال يبنى حولها . وعرض المنصور على أبى حنيفة أن يلى له القضاء ، ويكون القاضى الأول للخلافة ، فمادام يعطى الناس فتاويه . فليحكم بين الناس بما يفتى به . فقال له أبو حنيفة :

– يا أمير المؤمنين . أنا أقول برأيى ، فمن شاء أخذ به ، ومن شاء لم يأخذ، حاكما أو محكوما ، أو قاضيا.

يروى الحاجب الربيع بن يونس بعض ما جرى فى هذا اللقاء.
قال:

– رأيت أمير المؤمنين ينازل أبا حنيفة فى أمر توليه القضاء . وأبو حنيفة يقول للمنصور :

– يا أمير المؤمنين . أتق الله . ولا ترع أمانتك إلا من يخاف الله. والله ما أنا بمأمون الرضا ، فكيف أكون مأمون الغضب . ولو اتجه الحكم منى عليك ، ثم هددتنى أن تغرقنى فى الفرات ، أو أن الغى هذا الحكم، لاخترت أن أغرق . ولك يا أمير المؤمنين حاشية يحتاجون إلى من يكرمهم فى قضائه لأجلك ، فلا أصلح لذلك.

فقال له المنصور بحدة:
– كذبت . أنت تصلح.
فقال أبو حنيفة لفوره :
– قد حكمت على نفسك يا أمير المؤمنين . كيف يحل لك أن تولى قاضيا على أمانتك ، وهو كذاب؟

عندئذ حلف المنصور على أبى حنيفة ، أنه لابد أن يتولى لـــه أى عمل كان. وأدرك أبو حنيفة أن المقصود هو رقبته إن أبى هـــذا أيضـــاء فأراد أن يفوت غاية المنصور عليه ، فقبل أن يعمل له ما يكلفـــه بـــه إلا القضاء . فأمره المنصور بان يتولى القيام على أمر تشـــييد ســـور مدينـــة بغداد، مما يلي الخندق، وضرب اللبن لهذا السور، وأخذ الرجال بالعمل .

وقبل أبو حنيفة هذه المهمة . ونهض بها إلى أن فـــرغ العمـــال والمهندسون من بناء سور بغداد .

وعاد المنصور يكلف أبا حنيفة بأن يعد له اللبنات المستخدمة فـــى السور . فطلب أبو حنيفة قصبة، أمسك بها أمام المنصور وحاشـيته ، وراح يعد لبنات سور بغداد ، إلى أن أتمها عدا.

ورأى المنصور أنه قد تم له موقتا إذلال أبى حنيفة ، فـــأذن لـــه بالعودة إلى الكوفة.

*

وحدث أن أهل الموصل ، كانوا قد نقضوا عهدهم مع المنصور ، بالا يثوروا عليه . وكان المنصور قد اشترط عليهم أنهم إذا نقضوا عـــهدهم له، حلت له دماؤهم . وجمع المنصور عنده الفقهاء الكبار بالعراق، وفيـــهم أبو حنيفة . وتروى كتب المناقب قصة هذا الاجتماع.

قال المنصور للفقهاء :

– أليس قد صح أنه عليه الصلاة والسلام قال : "المؤمنون عنـــد شروطهم"؟ فإن أهل الموصل قد شرطوا على أنفسهم ألا يخرجـــوا علـــى عاملي على الموصل . وقد حلت لى دماؤهم . وســـارع فقيـــه بـــالمجلس بالقول :

– يدك مبسوطة عليهم يا أمير المؤمنين ، وقولك مقبول فيـــهم ، فإن عفوت فأنت أهل العفو ، وإن عاقبت فبم يستحقون.

فقال المنصور لأبى حنيفة :

– ما تقول يا شيخ ؟ ألسنا فى خلافة نبوة ، وبيت أمان؟

فقال أبو حنيفة :

– يا أمير المؤمنين . إنهم شرطوا لك ما لا يملكونه . وشـــرطت عليهم ما ليس لك، لأن دم المسلم لا يحل إلا بأحد معان ثلاثة . فإن أخذتهم أخذت بما لا يحل . وشرط الله أحق أن توفى به .

أفحم أبو حنيفة المنصور والفقهاء بالحجة المقنعة شرعا ، فأمر المنصور الفقهاء بمغادرة مجلسه ، فتفرقوا خارجين من قصر الخلافة . وعاد المنصور يدعو أبا حنيفة إليه ، وقال له:

- القول في أهل الموصل ما قلت . انصرف إلى بلادك. ولا تفت الناس بما هو شين على إمامك . فتنبسط أيدى الخوارج.

وأجل المنصور بذلك إنزال الأذى بأبى حنيفة ، الذى يحسن التخلص من المآزق ، ويصر على قول الحق ، وتخذيل الأعوان عن نصرة الظلم. وإن ترتب على ذلك هز أعمدة الحكم.

*

ولقد حدث أن أبا حنيفة أشار على "الحسن بن قحطبة"، وكان قائدا من قواد المنصور وجاء إليه طالبا التوبة من سفكه باسم المنصور، لدماء المسلمين ، فأشار عليه أبو حنيفة بالتوبة ، قائلا:

- إذا علم الله أنك نادم على ما فعلت ، ولو خيرت بين قتل مسلم، وقتلك أنت، لاخترت أن تقتل أنت ، على أن يقتل هو ، وتجعل مع الله عهدا، فإن وفيت به فهى التوبة.

وحدث أن كلف المنصور قائده هذا ، أن يتوجه بجيشه لقمع ثورة الزعيم العلوى "إبراهيم بن عبد الله"، فسارع الحسن إلى أبى حنيفة يستشيره فى أمر هذا التكليف ، فقال له أبو حنيفة :

- جاء إذن أوان توبتك ، إن وفيت بما عاهدت فأنت تائب، وإلا أخذت بالأول والآخر وتشجع الحسن بن قحطبة ، وذهب إلى المنصور فى مجلسه ، معتذرا له عن الامتثال لأمره، وقتل المسلمين.

فغضب المنصور منه،وسارع أخوه القائد حميد بن قحطبة لإنقاذه، بدعوى أن عقله مخلط عليه منذ سنة ، وعرض أن يسير هو بجيشه لحرب إبراهيم ، فوافق المنصور ، ثم أمر إثر خروج حميد من مجلسه بسجن الحسن، ثم أمر بقتله ، إثر انتصاره على إبراهيم بن عبد الله.

وعلم المنصور أن الحسن القتيل كان يتردد على أبى حنيفة ، فأدرك أن أبا حنيفة قد تجاوز حق النقد المجرد له ، إلى حد التحريض لقواده على عصيانه، وقرر أن يضع ولاء أبا حنيفة له موضع اختبار أخير.

-3-

حانت للمنصور الفرصة كي يرغم أبا حنيفة على العمل معه قاضيا للقضاة ، أو ينزل به أذى جسيما.

كان من عادة أبى حنيفة كفقيه صاحب فتوى، وإمام أول عند الناس لفقهاء العراق ، أنه كان ينقض بالفتوى أحكاما حكم بها قضاة الكوفة، معطيا نفسه بذلك الحق الذى تكفله فى أيامنا محاكم النقض ، ليس بالحكم كقاض، وإنما بالنظر فى الأحكام كمفت . ولم يكن أبو حنيفة يستردد فى هذا النقض بالفتوى، فكان يثير بنقضه هذا، وعلانيــة علــى النـاس ، حفيظة القضاة عليه، وظنهم السوء به. وكثيرا ما كانوا يرفعون شــكاواهم إلى أمير الكوفة ، فيمنعه من الفتوى حينا بالحجر عليه فى الفتــوى ، ثــم يضطر أن يبيحها له بعد حظر ، حين ترد إلى أبى حنيفة مسائل من قصــر الخلافة ليقول فيها رأيه، يحملها ولى العهد بنفسه إلى أبى حنيفة.

وكان القاضى "ابن أبى ليلى" من قضــاة الكوفــة ، ومــن بيــن المقربين إلى الخليفة المنصور ، والقابلين لهداياه وعطاياه . وحدث أن ابــن أبى ليلى نظر فى أمر امرأة مجنونة، قذفت رجلا من أهل الكوفة ، قائلــة له: يا ابن الزانيين . فأقام عليها ابن أبى ليلى الحد فى المســجد ، قائمــة. وحدها حدين: حد لقذفها أبا الرجل، وحد لقذفها أمه.

وبلغ هذا الحكم أبا حنيفة ، فقال علانية فى مسجد الكوفة:

– أخطأ ابن أبى ليلى فى حكمه على المرأة ، فى ستة مواضــع: أقام الحد فى المسجد ، ولا تقام الحدود فى المســاجد . وضربـها قائمــة والنساء يضربن قعودا . وضرب لأبيه حدا، ولأمه حدا، ولو أن رجلا قذف جماعة كان عليه حد واحد . وحد لأبويه وهما غائبــان ، ولــم يحضــرا فيدعيا. ولا حد على مجنونة.

وسارع ابن أبى ليلى بشكوى أبى حنيفة لأبى جعفر المنصــور ، لتجريحه لقضائه ، ولقضاء قضاة الكوفة ، فأسقط بذلك كرامــة القضــاء ،

وهيبة القضاء بين الناس . ولاشك أن أبا جعفر المنصور قد ساءه هذا التجريح للقضاء ، من فقيه مفت ، وإن كان في تجريحه على حق بين وصريح . ولعله تساءل بينه وبين نفسه : لم لا يلي أبو حنيفة أمور القضاء إذن ، ليكون له حق المراجعة لأحكام القضاء ، كقاض للقضاة؟ وقرر في نفسه أمرا : لابد أن يلي أبو حنيفة أمور القضاء في بغداد والعراق .

وحين عاد ابن أبي ليلى إلى الكوفة، وتحدث إلى الناس عن شكواه لأبي حنيفة ، التي قدمها إلى المنصور ، قال أبو حنيفة : "إن ابن أبي ليلى ليستحل مني مالا يستحله من حيوان".

ودعا المنصور أبا حنيفة ليقابله في قصره ببغداد ، فأدرك أنها المحنة.

تروي كتب المناقب "أن أبا حنيفة لما أشخص إلى بغداد ، خرج ملتمع الوجه، وقال : "إن هذا دعاني للقضاء وقد أعلمته من قبل أنني لا أصلح للقضاء . فلا يصلح للقضاء إلا رجل يكون له نفس ، يقدر بها أن يحكم على الخليفة ، وعلى ولده ، وعلى قواده ، وليست تلك النفس لي".

وعن هذا اللقاء ، تروي كتب المناقب : أن أبا حنيفة قال للمنصور :

– إنك تدعوني إليك ، فما ترجع نفسي إلي حتى أفارقك.

فقال له المنصور:

– فلم لا تقبل صلتي؟

فقال له أبو حنيفة :

– ما وصلني أمير المؤمنين بشيء من ماله فرددته . ولو وصلني لقبلته. إنما وصلني أمير المؤمنين ، من بيت مال المسلمين، ولا حق لي في بيت مالهم . فإني لست ممن يقاتل من ورائهم ، فآخذ ما يأخذه المقاتل، ولست من ولدانهم فآخذ ما يأخذه الولدان ، ولست من فقرائهم فآخذ ما يأخذه الفقراء، من العطاء.

فقال له المنصور :

– فأقم إذن معنا في بغداد ، ويسألك القضاة ، فيما لعلهم أن يحتاجوا إليك فيه.

وأبى أبو حنيفة ذلك الأمر ، مؤكدا أنه مجرد مفت بما يقبل منه، وما لا يقبل منه ، وقد يقول بالرأي اليوم ، ويرى غيره غدا . وأقسم

المنصور على أبي حنيفة أن يقبل تولي القضاء ، وأقسم أبو حنيفة أنه لن يقبل.

حدث الصدام إذن والتحدى من الفقيه للخليفة، وعندئذ أمر المنصور بحبس أبي حنيفة ، وجلده كل يوم عشرة أسواط ، إلى أن يقبل أن يكون القاضي الأول للخلافة.

*

ويروى أن أبا حنيفة ، أخرج يوما من السجن ، وألزم بباب الخلافة، وطلب منه أن يفتى فيما يرفع إليه من الأحكام ، أو يرسل إليه من المسائل. لكن أبا حنيفة لزم الصمت ، ولم يكن يفتى فى هذا الأمر أو ذاك.

وذهب إليه "الربيع بن يونس" الحاجب ، وقال له :

– ألا ترى أن أمير المؤمنين قد حلف. فابر له قسمه ، فإنه لا يستطيع أن يرجع عنه.

فقال له أبو حنيفة الفقيه المفتى:

– بل يستطيع . وهو على كفارة ايمانه أقدر منى.

وأعيد أبو حنيفة إلى سجنه ، وغلظ عليه في المعاملة ، وضيق عليه تضييقا شديدا، إلى أن آن لمحنة أبى حنيفة أن تنقضى بموته . فقد مات أبو حنيفة أثناء هذه المحنة أو إثرها، على اختلاف فى الروايات ، بل على اختلاف فى سبب موته : أكان من التعذيب وآثار التعذيب ، أم كان بسقيه السم فى سجنه أو فى منزله ؟ ولقد كان الدعاء الذى يردده أبو حنيفة أبدا ، وهو فى سجنه، كلما تتابع عليه الضرب بالسياط : "اللهم أبعد عنى شرهم بقدرتك".

ولقد أبعد الله عنه شرهم باختياره للقائه.

ولقد أوصى أبو حنيفة من كانوا يزورونه فى سجنه ، أو فى بيته بعد خروجه من سجنه ، بأن يدفن في جانب من مقبرة عينها ، لأنه لم يجر فيها غصب من الخليفة .

وتذكر الروايات أن المنصور قد صلى على قبر أبى حنيفة بعد موته، وذلك ما يؤكد أنه مات فى بيته ، ولم يمت فى محبسه ، سنة 150 هجرية.

وحين علم المنصور بوصية أبى حنيفة، وشرطه فى مقبرته، قال:

– من يعذرنى من أبى جنيفة : حيا ، وميتا!!

-4-

ومع اضطهاد السلطة لأبى حنيفة الفقيه المفتى الإمام ، تعرض أبو حنيفة لإرهاب الخوارج ، كلما أتوا مقتحمين الكوفة ، على الناس، وعلى ممثلى السلطة بالكوفة ، وهم مدججون بالسلاح.

حدث، مرة ، على سبيل المثال ، أن الضحاك بن قيس ، وكان من زعماء الخوارج ، أنه دخل على أبى حنيفة ، وهو فى حلقته بمسجد الكوفة ، وكان مع الضحاك رجال من الخوارج مدججون بالسلاح، وكان الخوارج يرون فيما يرون، تكفير الإمام على بن أبى طالب، لقبوله بالتحكيم فى موقعة صفين.

قال الضحاك لأبى حنيفة:

-تب.

-فقال له أبو حنيفة:

-مم أتوب؟

-فقال له الضحاك :

-من تجويزك الحكمين فى موقعة صفين بين على ومعاوية.

فقال أبو حنيفة للضحاك :

- تقتلنى أو تناظرنى .

فقال الضحاك :

-بل أناظرك.

فقال أبو حنيفة للضحاك :

-فإن اختلفنا فى شيء مما تناظرنا فيه، فمن بينى وبينك.

فقال الضحاك :

-اجعل أنت من شئت .

فقال أبو حنيفة لرجل من أصحاب الضحاك مدجج بالسلاح:

- اقعد، فأحكم بيننا فيما نختلف فيه ، إن اختلفنا.

ثم قال للضحاك :

– أترضى بهذا بيني وبينك ؟

فقال الضحاك :

– نعم.

فقال أبو حنيفة لفوره:

– هذا. أنت قد جوزت التحكيم .

فبهت الضحاك ، وانقطع جدله مع أبي حنيفة ، ونهض منصرفـــا برجاله من مسجد الكوفة ، ومن الكوفة ، ولم يغير الخوارج موقفـــهم مـــن تكفير الإمام علي ، لقوله بالتحكيم، ولا ممن يجوزن هـــذا التحكيـــم مـــن الفقهاء، وعامة المسلمين .

محن الإمام مالك

في القرنين الهجريين الأول، والثاني عاش أيضا إمام النقل حديثا وسنة الإمام مالكا ، وكان من أهل الجماعة . ولد بالمدينة، وعاش عمره كله بها يأبى أن يركب دابة ، يسير بها على تراب مشى عليه رسول الإسلام، ويفر بنفسه من الفتن والمحن، لكن الفتن والمحن لاحقته في عصر بني العباس.

-1-

مثلما واجه الإمام أبو حنيفة إرهاب الخوارج ، وإرهاب السلطة ، واجه الإمام مالك بن أنس هذين الإرهابيين ، وكان مالك يعيش بالمدينة في القرن الثاني الهجرى، الثامن الميلادى ، ويفتي الناس والقضاة، في المسجد النبوى ، وفي الموضع الذى كان يجلس فيه الخليفة الراشد عمر بن الخطاب.

وكان الإمام مالك فقيرا ، لا تجارة له ولا حرفة. وكان يتلقى العون من صديقه الفقيه المصرى "الليث بن سعد" كل عام، مائة بعير محملة لخيرات مصر ، يأخذ منها حاجة عامة ، ويوزع سائرها على فقراء المدينة.

وكان مالك ، يقبل متحرجا، وعلى مضض هدايا الخلفاء ، ويتألم منها، فيعطيها لطلاب العلم الفقراء. وحين يسأله أحد عن حل أو حرمة هدايا الخلفاء ، كان مالك يقول له لفوره: "لا تأخذها" فيقول له سائله : "أنت تقبلها" فيقول له مالك: "أتريد أن تبوء بإثمي وإثمك؟".

وأحيانا يقول لسائله بمرارة ، حين يجبهه بقوله : فأنت تقبلها "أحببت أن تبكتني بذنوبي".

وكان مالك يعلم أن ولاءه للدولة يختبر بهذه الهدايا من الخلفاء ، ويجد العذر لنفسه لبعده عن عاصمة الخلافة ، في قبول هدايا الخلفاء.

وكان مالك يرى ، كمفت ، أنه لا جدوى من الخروج على الحكام وإن كانوا ظالمين ، فالخروج عليهم يؤدى إلى الفتن ، وإباحة الدماء ، فيكون القاعد خيرا من القائم ، ويكون القائم خيرا من السائر ، فلقد رويت لمالك في صباه أحداث استباحة المدينة حرم رسول الله، وهتك حرمات المحارم وأسر الأنصار ، ورمى الكعبة بالمنجنيق، على يد يزيد بن معاوية بن أبى سفيان.

وكان عمر مالك ثمانى وثلاثين سنة ، حين اقتحم أبو حمزة الخارجى مدينة الرسول سنة 130 هجرية، وقتل هو ورجاله المدافعين عن المدينة. وكانت المقتلة فى قريش. وكثرت النائحات على رجالهن أبناء، وأبناء، وإخوة، وجاء جند مروان بن محمد (آخر خلفاء بنى أمية) فأخرجوا الخوارج من المدينة ، والمدينة فى هذا كله مكان لعبث الخوارج ، ثم لعبث الجند الأمويين.

ورأى مالك أن طموح الخوارج لإقامة العدل، لا تبرر ذرائعهم ووسائلهم، وأن إرهابهم للناس ، إثم ، ونتائجهم الواقعة لا خير فيها للأمة.

ولم يكن مالك راضيا عن حكم الخلافة ، ولا راضيا عن الخوارج عليها ، ولا عن المتمردين من العلويين ، ولذلك لم يدع إلى طاعة السلطة، ولم يؤيد ولاة السلطة ، ولم يرمع ذلك، الخروج على طاعتهم لأن الخروج بلا ثمرة. ولذلك أجاب عندما سئل عن قتال الخارجين على خليفة عباسى : أيجوز قتالهم. "فقال له مالك : دعهم . ينتقم الله من ظالم بظالم ، ثم ينتقم من كليهما".

في العصر العباسي . وفي عهد أبي جعفر المنصور ، نزلت بمالك محنة ، عام 146 هجرية ، ضرب فيها بالسياط، ومدت يداه حتى انخلعت كتفاه. ففي هذه السنة حدث خروج محمد بن عبد الله (النفس الزكية)، على الخلافة العباسية .

وتصادف أن مالكا كان يحدث الناس آنذاك بحديث : "ليس لمستكره طلاق".

ووجد الناس بالمدينة في هذا الحديث، وكانوا أنصارا للنفس الزكية ، ما يدل على أنه ، بالمثل ، ليس لمستكره بيعة ، ولذلك فلا بيعة للمنصور في أعناقهم .

ووجد الكائدون لمالك ، والحاسدون له ، والغياري منه، فرصة للكيد له عند والي المدينة من قبل المنصور: "جعفر بن سليمان"، قائلين له:

"إن مالكا لا يرى أيمان بيعتكم هذه بشيء ، فهو يأخذ في البيعة بحديث روى عن ثابت بن الأحنف، في طلاق المكره ، أنه لا يجوز.

ولم يكن الحديث هو السبب في محنة مالك، وإنما التحديث به في وقت الفتن ، واستخدام الثائرين لذلك الحديث .

ولم يكف مالكا للدفاع عن نفسه أنه كان يلزم بيته في وقت الفتنة، خاصة وأن مقتل النفس الزكية حدث عام 145 هجرية ، ومحنة مالك وقعت عام 146 هجرية.

وإثر المحنة التي نزلت بمالك ، سخط أهل المدينة على بني العباس وولاتهم ، فمالك كان مظلوما ، ومالك لم يتجاوز حد الإفتاء، في موضوع طلاق المكره.

ولزم مالك بيته إلى أن شفي من جراحه، واستمر في درسه لا يحرض على أحد، ولا يشكو لأحد ما نزل به ، فزاد موقفه من نقمة أهل المدينة على الحاكمين .

وأدرك أبو جعفر من عيونه موقف الناس ، فانتهز الفرصة حين خرج حاجا إلى مكة ، ونزل في بيت الإمارة بالمدينة ، وأرسل إلى مالك يدعوه إليه، ليعتذر له. ويروى مالك قصة هذا اللقاء، يقول:

"لما دخلت على أبي جعفر.. قال لي: والله الذى لا إله إلا هو، ما أمرت بالذى كان ، ولا علمته . إنه لا يزال أهل الحرمين بخير ، ما كنت بين أظهرهم . وإني إخالك أمانا لهم من عذاب. ولقد رفع الله بك عنهم سطوة عظيمة ، فإنهم أسرع الناس إلى الفتن . وقد أمرت بعدو الله (والي المدينة) أن يؤتى به من المدينة إلى العراق على قتب (محمل صغير) فوق سنام البعير . وأمرت بضيق محبسه ، والاستبلاغ فى امتهانه . ولابد أن أنزل به من العقوبة أضعاف ما نالك منه. فقلت لأبى جعفر:

– عافى الله أمير المؤمنين ، وأكرم مثواه . قد عفوت عنه لقرابته لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقرابته منك. فقال لى أبو جعفر: فعفا الله عنك ووصلك. ثم قال أبو جعفر لى : إن رابك ريب من عامل المدينة، أو عامل مكة ، أو أحد من عمال الحجاز ، في ذاتك ، أو ذات غيرك، أو سوء أو شر بالرعية ، فاكتب إلى بذلك ، أنزل بهم ما يستحقون .

محن الإمام الشافعى

فى العصر العباسى ، ولد الإمام الشافعى وعاش ، وكان قرشى النسب. وجمع فى فقهه بين النقل والعقل ، فقد تتلمذ على مالك ، وعلى تلاميذ أبى حنيفة . ونجح بهذا الجمع فى وضع أصول الفقه لأول مرة فى كتابه "الأم". ولقد دفعه الفقر إلى العمل لدى الوالى فى اليمن ، ثم إلى صحبه والى مصر ، فكفله، ورعاه.

-1-

كان العباسيون فى بغداد ، يخشون خصومهم العلويين الأقوياء ، وكانوا إذا رأوا دعوة علوية ، قضوا عليها فى مهدها، وقتلوا العلويين ، والمتهمين بالعلوية بالشبهة ، وباليقين ، فقتل برىء أولى عندهم من ترك متهم يفسد الأمن عليهم.

واستغل والى اليمن هذا الضعف فى نفوس العباسيين ، فأرسل إلى الخليفة هارون الرشيد يقول :

"أن تسعة من العلويين تحركوا .. وإنى أخاف أن يخرجوا (بالثورة).. وإن هاهنا رجلاً من أولاد شافع المطلبى ، لا أمر لى معه ولا نهى . يعمل بلسانه ما لا يقدر عليه المقاتل بسيفه".

وأرسل الرشيد إلى والى اليمن يأمره بإرسال هؤلاء العلويين التسعة إليه ، ومعهم ذلك الشافعى المطلبى ، وكان عاشرهم .

وقتل الرشيد التسعة ، وكاد أن يقتل الشافعى ، لولا حجة الشافعى بين يديه، ولولا شهادة "محمد بن الحسن الشيبانى" تلميذ أبى حنيفة له .

قال الشافعى للرشيد :

– يا أمير المؤمنين . ما تقول فى رجلين : أحدهما يرانى أخاه ، والآخر يرانى عبده . أيهما أحب إلى؟

– فقال الرشيد:

– الذى يراك أخاه.

فقال الشافعي:

– فذلك (الأخ هو) أنت يا أمير المؤمنين . إنكم ولد العباس ، وهم ولد علي ، ونحن بنو المطلب ، فأنتم ولد العباس تروننا أخوتكم ، وهم يروننا عبيدهم.

ولأن العلم رحم بين أهله ، فقد شهد "محمد بن الحسن الشيباني" للشافعي ، بأن له حظا من العلم والفقه يعرفه . قال:

– وله من العلم يا أمير المؤمنين حظ كبير . وليس الذي رفع عليه (من والي اليمن) من شأنه.

فقال له الرشيد:

– فخذه إليك ، حتى أنظر في أمره.

وبهذا نجا الشافعي من القتل ظلما ، ومرت المحنة الأولى على الشافعي ، وهو في الرابعة والثلاثين من عمره ، سنة 184 هجرية . وأدرك الشافعي من هذه المحنة أن عليه أن يتجه إلى العلم ، لا إلى الولاية، وخدمة شئون السلطان ، وصار ضيفا مقيما ، على الفقيه "محمد بن الحسن" ، حامل فقه العراقيين وناشره ، إلى أن رحل إلى مصر.

—2—

في مصر ، راح الشافعي يلقي بآرائه هو الفقهية، لا يتعرض فيها بنقد أو تزييف لآراء شيخه مالك ، وافقه أو خالفه ، ولذلك كـان الشـافعي يعد من أصحاب مالك بين فقهاء مصر ، مع أن في آرائه ما يخـالف آراء مالك ، مثلما خالف مالكا ، من قبل ، بعض أصحاب مالك ، ومثلما خـالف أبا حنيفة، من قبل، بعض أصحاب أبي حنيفة .

ثم حدث ما اضطر الشافعي إلى أن ينقد آراء مالك ، وكشف مـا فيها من خطأ.

فقد بلغه أن الإمام مالك تقدس آثاره ، وثيابه ، في بعض البـلاد الإسلامية ، وأن مسلمين من المسلمين يعـارضون أحـاديث للرسـول ، بأقوال مالك .

وأدرك الشافعي أن الناس مقدمون علي أمر خطير ، تصبح بـه أقول مالك دينا داخل الدين. فمالك يصيب ويخطئ ، وليس لرأى مـالك ولا لرأى سواه مع الحديث رأى ، وهو (الشافعي) معروف بين النـاس بأنـه ناصر الحديث، وعليه أن ينقد آراء مالك ، ويعلن عن الخطأ فيها للنـاس، ليعلم الناس أنه لا رأى لمالك مع الحديث الصحيح ، الذي لم يبلغ مالكا .

وعكف الشافعي وألف كتابا بعنوان "خلاف مالك" . وتردد فـترة في إعلانه ، فهو عنده "الأستاذ" ثم استخار الله وأذاعه للناس.

يروى "الفخر الرازى" في كتابه عن مناقب الشافعي . يقول:

"إن الشافعي إنما وضع الكتاب علي مالك ، لأنه بلغه أن بالأندلس قلنسوة (غطاء رأس) يستقي بها (الناس). وكان يقال لهم قـال رسـول الله صلى الله عليه وسلم ، فيقولون قال مالك . فقال الشافعي : إن مالكا آدمـي قد يخطئ ويغلط . فكان ذلك داعيا للشافعي إلى وضع الكتاب علي مـالك وكان يقول: كرهت أن أفعل ذلك . ولكني استخرت الله فيه سنة".

ويروى الربيع تلميذ الشافعي ، يقول :

"سمعت الشافعي رضي الله عنه يقول : قدمت مصر ، ولا أعرف أن مالكا يخالف من أحاديثه إلا ستة عشر حديثا . فنظرت فإذا هو (مالك) يقول بالفرع ، ويدع الأصل ، ويقول بالأصل ، ويدع الفرع".

وكان لمالك بمصر المكان الأول بين المجتهدين .

ولذلك ثار المالكيون على الشافعي ، وراحوا ينقدونه ويجرحونه ، ويطعنون عليه ، بل ذهب جماعة منهم إلى الوالي طالبين إخراج الشافعي من مصر ، فدافع عنه الوالي بأنه لم ينقد مالكا فقط ، وإنما نقد من قبله آراء الأوزاعي فقيه الشام. وذكرهم بقول أحمد بن حنبل فيه : "الشافعي فيلسوف في أربعة أشياء في: اختلاف الناس، والمعاني ، والفقه، واللغة، وذكرهم الوالي بأن الناس كانوا قبل الشافعي فريقين : أصحاب الحديث ، وأصحاب الرأي ، وأن الشافعي جمع بأصوله بينهما ، فانقطع بسببه استيلاء أهل الرأي على أهل الحديث ، ومالك كان غالبا من أهل الحديث.

وقف الوالي مع الشافعي ، تاركا اياه لجداله مع العلماء ، لا يخرجه من مصر ، إلى أن اندفع شاب ، واعتدى عليه . ويروى ياقوت في معجمه قصة هذا الاعتداء ، يقول :

"كان بمصر رجل من أصحاب مالك بن أنس ، يقال له "فتيان " فيه حدة وطيش ، وكان يناظر الشافعي كثيرا ، ويجتمع الناس عليهما ، فتناظرا يوما في مسألة بيع الحر ، وهو العبد المرهون ، إذا اعتقه الراهن، فأجاب الشافعي بجواز بيعه ، ومنع فتيان بيعه.

وظهر الشافعي على فتيان في الحجاج (الجدال) ، فضاق فتيان لذلك ذرعا، فشتم الشافعي شتما قبيحا ، فلم يرد الشافعي عليه حرفا ، ومضى في كلامه في المسألة .

ورفع (ما حدث) إلى الوالي ، فدعا الوالي الشافعي، وسأله عن ذلك ، وعزم عليه (ألح عليه) فأخبره (الشافعي) بما جرى ، وشهد الشهود على فتيان بذلك.

وأمر (الوالي) بفتيان فضرب بالسياط ، وطيف به على جمل، وبين يديه من ينادي : هذا جزاء من سب آل رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ثم إن قوما تعصبوا لفتيان من سفهاء النـــاس ، وقصـــدوا حلقـــة الشافعي، (وانتظروا) حتى خلت من أصحابه ، وبقي وحده، فهجموا عليـــه وضربوه ، فحمل الشافعي إلى منزله، فلم يزل فيه عليلا حتى مات".

وقد لا يكون الضرب هو سبب الموت ، فالعلة التي مـــات بـــها الشافعي هي مرضه بالبواسير ، وقد أصابه بسبب البواسير نزف شـــديد ، فلقي وجه ربه راضيا مرضيا.

* * *

محن الإمام أحمد ابن حنبل

في العصر العباسي، في القرن الثاني الهجري عاش إمام الاتباع للرسول أقوالا وأفعالا : أحمد بن حنبل الشيباني. ومثل الشافعي نشأ أحمد يتيم الأب في بغداد ، يستغني مع أمه بعائد يسير من منزل ورثه به حوانيت. ودفعه الورع والقناعة إلى طلب علم الحديث وسنة الرسول عمره كله، وكان يرفض أن تدون عنه آراؤه في الفقه ، فهو محدث ومتبع. ولشهرته بين الناس ، تعرض لمحنة طويلة الأمد، في عهود خلفاء معتزليين لبني العباس اعتقدوا في أن القرآن مخلوق.

-1-

كان الخليفة المأمون ، صاحبا للمعتزلة ، ومن بينهم اختار وزراءه ، وأصحابه ، وكان يقول مثلما يقولون ، ومن بين ما يقولونه في مسائل العقائد، في علم الكلام ، أن القرآن الكريم مخلوق ومحدث ، وكانوا يقولون بذلك منذ عهد الدولة الأموية. لكن الخليفة المأمون حين قال بمثل ما قالوا به، وهو الخليفة الإمام ، أراد من الفقهاء والمحدثين ، الذين يكرهون علماء الكلام ، ويكرهون طرائقهم الفلسفية في عقائد الإسلام ، أن يقولوا مقالته في خلق القرآن ، أن القرآن مخلوق ومحدث. ولقد أوصى المأمون من بعده من الخلفاء أن يقولوا بمثل ما يقول ، وأن يحملوا الفقهاء والمحدثين على مثل ما يحملهم عليه ، فاتبع وصيته خليفتان من بعده ، هما: المعتصم ، والواثق، وسلكا مسلكه .

ولقد أراد المأمون أن يحمل أحمد بن حنبل ، محدث عصره الفقيه، على القول بخلق القرآن ، وبأنه محدث . فأبى أحمد ذلك القول ، وأصر على قوله بأن القرآن كلام الله . فكانت محنته مدوية استمرت في عهد المأمون، وفي عهدي المعتصم والواثق من بعده، ومحنة لقي فيها العذاب .

وأول من دعا إلى أن القرآن مخلوق ومحدث ، هو "الجعد بن درهم"، في العصر الأموي ، فأتى به الوالي خالد بن عبد الله القسري ، إلى مسجد الكوفة ، مقيدا بالأغلال في يوم عيد الأضحى . وصلي خالد بالناس صلاة العيد ، وخطب في الناس خطبة العيد ، ثم قال لهم في آخر خطبته:

– اذهبوا (عائدين إلى بيوتكم)، وضحوا بضحاياكم ، تقبل الله (منكم)، (أما أنا) فإني أريد أن أضحي بالجعد بن درهم ، فإنه يقول: إن القرآن مخلوق، وإن الله ما كلم موسى تكليما ، ولا اتخذ إبراهيم خليلا، تعالى الله عما يقول علوا كبيرا

ونزل الوالي خالد عن المنبر ، وقتل الجعد بن درهم ، مطيحا برأسه في عنف ، بحد سيفه .

وبمثل قول الجعد ، قال "الجهم بن صفوان" نافيا بقوله صفة الكلام عن الله سبحانه ، تنزيها لله عن الحوادث وصفاتها ، فالقرآن عنده مخلوق ، وليس بقديم.

وعندما ظهر المعتزلة ، نفوا صفات المعاني عن الله سبحانه ، وأنكروا معها صفة الكلام ، وأولوا كلام الله لموسى، بأنه سبحانه خلق الكلام في الشجرة ، مثلما يخلق كل شيء . فالقرآن مثل كل شيء مخلوق محدث. وزاد خوض المعتزلة في هذه المسألة في عهد الرشيد ، ولم يكن الرشيد يشجع أحدا من رعيته على الخوض في العقائد ، بل إنه حبس جماعة من المجادلين في الكلام ، من المعتزلة ، وقال عن المعتزلي المتكلم العالي الصوت "بشر بن غياث":

– إن أظفرني الله بابن غياث أقتله .

فظل بشر مستخفيا طوال خلافة الرشيد ، ثم عاد إلى الظهور آمنا، وعالي الصوت ، في عهد ابنه المأمون وكان بشرا تلميذ في الأديان والمقالات في الأديان ، لأبي الهذيل العلاف ، أحد رءوس علماء الاعتزال الكبار ..

وحين صار المأمون خليفة ، واستقر له أمر الخلافة في بغداد، صار يعقد المجالس للمناظرات والمناقشات ، في المقالات والنحل والملل. وكان فرسان هذه المناظرات ، هم علماء المعتزلة. ولذلك خص المأمون هؤلاء العلماء ، بأن يكون من بينهم وزراؤه، وأصحابه، وفي مقدمتهم :

"احمد بن أبى دؤاد". ووصل المأمون من اصطفائه له ، أنه أوصى أخـاه المعتصم بأن يجعله مستشاره ، فى كل أموره ، قائلا له :

".. وأبو عبد الله بن أبى دؤاد ، فلا يفارقك وأشركه فى المشورة فى كل أمرك ، فإنه موضع لذلك منك".

وقد بدأ المأمون فى تأييد للاعتزال سنة 212 هجرية ، وأظهر هذا التأييد بإبداء رأيه فى المناظرات التى كان يعقدها لأهل الفرق الإسلامية ، معتزلة كانوا ، أو غير معتزلة ، تاركا الحرية للعلماء ، وللناس ، فى القول بالاعتزال ، وغير الاعتزال، طوال ست سنوات. ثم بدا له فى سنة 218 هجرية ، أن يحمل الناس ، علماء وغير علماء ، وبقوة الإمامة ، على القول قهرا ، بفكرة خلق القرآن .

بدأ ذلك المأمون وهو بمدينة الرقة ، حين أرسل رسالة إلى "اسحق ابن إبراهيم"، نائبه على بغداد ، ليحمل الفقهاء والمحدثين ، على القول بخلق القرآن ، ومعهم من يلون مناصب فى الدولة ، ومن يلون القضاء ، ومن يتقدمون للشهادة أمام القضاة ، وليعزل كل من لا يقول بخلق القرآن من منصبه ، أو من الإدلاء بشهادته ، أو من عمله كقاض ، وليمنع من الفتوى كفقيه ، أو من التحديث كمحدث كل من لا يقول بخلق القرآن .

وطلب المأمون من إسحق أن يرسل إليه فى الرقة ، باستجابات المستجيبين ، ورفض الرافضين ، وأرسل إليه إسحق بمواقف الرافضين ، وبينهم قضاة ، وفقهاء ومحدثون ، أبوا أن يقولوا بخلق القرآن .

وكتب المأمون ثانية إلى إسحق ، يأمره بأن يرسل بهؤلاء الرافضين إليه فى معسكره بالرقة ، تحت حراسة مشددة ، مقيدين بالأغلال، ليستتيبهم المأمون عن الشرك ، وينذرهم بعقوبة الإعدام .

*

وسيق المحدثون والفقهاء المفتون ، وبينهم كان أحمد بن حنبل، إلى أمير المؤمنين المأمون .

وبين يدى المأمون ، وأمام التهديد والوعيد ، اعتنق الرافضون جميعا مذهب الاعتزال ، والقول بخلق القرآن ، إلا أربعة ، أصروا على

موقفهم، هم: أحمد بن حنبل ، ومحمد بن نوح ، والقواريرى ، وسجادة ، فباتوا ليلتهم مصفدين فى الأغلال.

وفى الصباح تراجع "سجادة" أمام المأمون ، وقال بخلق القرآن ، ففكت قيوده، وأطلق سراحه ، وأعيد الثلاثة الآخرون إلى سجنهم بالمعسكر مقيدين بالأغلال .

وفى الصباح التالى ، خار "القواريرى" وسلم بالقول بخلق القرآن فأطلق سراحه.

وبقى فى القيود : **أحمد بن حنبل ، ومحمد بن نوح** ، وحمل الاثنان إلى طرسوس ، مع المأمون .

وفى الطريق ، استشهد محمد بن نوح.

*

ثم نعى الناعى بغتة وفاة المأمون ، وكان على الخليفة المعتصم ، من بعده ، أن ينصر دعوة الاعتزال ، وأن يقرر مصير أحمد بن حنبل ، الذى رفض الخوض بأى قول فى هذه القضية ، فقد رفض أن يقول بأن القرآن مخلوق ، ورفض أن يقول بأن القرآن غير مخلوق ، مؤكدا أمرا واحدا هو أن القرآن كلام الله ، ولا دخل له بكونه مخلوقا أو غير مخلوق. وهكذا توقف أحمد، لأنه لم يؤثر عن السلف كلام فى هذه المسألة ، وعلمها عند الله وحده.

وراح المعتصم ينزل الأذى بمخالفيه ، ومخالفى مستشاره أحمد بن أبى دؤاد، فى القول بخلق القرآن ، ممتحنا الضمائر ، كاشفا للسرائر. ولذلك انتقد كثيرون ممن يقولون بخلق القرآن ، المعتصم ومستشاره ، وعلى رأس هؤلاء المنتقدين كان الجاحظ المعتزلى ، لأنهما يدعوان إلى حرية الفكر ، وفى الوقت نفسه يعذبان من يمارس هذه الحرية !!

وتقع مسئولية الاضطهاد، بالأكثر، على ابن أبى دؤاد ، فهو عالم، والمعتصم رجل سيف . وقد ترك له المعتصم حرية التصرف ، مع أحمد بن حنبل .

أمر ابن أبى دؤاد بأحمد بن حنبل ، فسيق مقيدا إلى السجن ببغداد، واتخذت بالسجن مع ابن حنبل وسائل الإغراء والإرهاب ، لكنه صمد عند توقفه فى أمر خلق القرآن .

وفي كل يوم ، طوال ثماني وعشرين شهرا ، كان أحمد يضرب بالسياط إلى أن يغمى عليه ، وينخس بالسيف فلا يحس ، وعندئذ فقط يترك إلى اليوم التالي .

وحين يئس معذبو أحمد منه ، رحموه ، واطلقوا سراحه ، وأعادوه إلى بيته مثخنا بالجراح ، لا يقوى على السير ، وقد انتصر بثقاه ، وهزم أصحاب السياط.

وانقطع أحمد عن الدرس والتحديث ، إلى أن شفيت جراحه ، فعاد إلى المسجد معافى ، إلا من آثار التعذيب ، وندوب السياط، وأوجاع الأعضاء، وراح يدرس في المسجد ، ويحدث الناس في المسجد ، إلى أن مات الخليفة المعتصم ، وتولى الخليفة الواثق ، وعندئذ أعاد الواثق بمشورة ابن أبي دؤاد المحنة إلى حياة أحمد بن حنبل .

لكن هذه المحنة لم تكن في هذه المرة سجنا ، ولا ضربا بسوط . كانت فقط منعا لأحمد ، من الدرس ، والتحديث ، في المسجد ، أو في غير المسجد، ومنعا لأحمد من أي اجتماع بالناس ، أو المكثي ببلد يقيم فيه الخليفة الواثق ، فلقد زادت منزلة ابن حنبل عند الناس ، وزاد سخط العامة على الخلافة ، وعلى أحمد ابن أبي دؤاد، وشاعت بين الناس فكرة التوقف عن القول بخلق القرآن . أو عدم القول به ، فهو فقط كلام الله ، كما قال القرآن ، ودون تأويل لظاهر القرآن ، كما قال أحمد.

قال الواثق لأحمد بن حنبل:

– لا تجمعن إليك أحدا، ولا تسكن في بلد أنا فيه .

وامتثل أحمد بن حنبل للأمر في هذه المرة ، فأقام مختفيا ، لا يراه أحد، ولا يخرج من بيت يختفي فيه إلى صلاة ، أو إلى غير صلاة ، طوال خمس سنوات ، من سنة 228 هجرية ، إلى سنة 232 ، إلى أن مات الخليفة الواثق .

وجاء المتوكل بعد الواثق ، فأوقف الاضطهاد ، وحارب الاعتزال، وعندئذ عاد أحمد ، عزيزا مكرما ، إلى التدريس ، والتحديث ، في المسجد ، وفي غير المسجد .

ولقد تركت محنة القول بخلق القرآن وراءها شهداء من شهداء خلافات القهر ، بينهم كان : **يوسف بن يحيى البويطي** الفقيه المصري ، **ونعيم بن حماد** .

ملحق

رسالة الصحابة لابن المقفع

شاهد عصر ووثيقة على عصره

فى القرن الثانى الهجرى ، الثامن الميلادى ، عاش كاتب مفكر مستعرب هو عبد الله بن المقفع ، وصار هذا الاسم اسما له ، بعد أن تعرب ، وأسلم ، وكان من قبل فارسى الأصل، واسمه : "روزبه بن داذويه". وكان أبوه من جباة الخراج لبنى العباس.

تعرب ابن المقفع ، وهو بالبصرة ، على يد أسرة عربية ، هى أسرة بنى الهيثم ، وتعلم منها العربية ، مفرداتها ، وتراكيبها ، وبلاغتها ، وفصاحتها، وأسرارها ، وتتلمذ، وقد هوى الكتابة على يد أول كاتب عربى أديب معروف ، صار أبا للكتاب العرب ، وللكتابة العربية ، وهو: عبد الحميد الكاتب . وعاصر ابن المقفع أبا عثمان الجاحظ الكاتب الثانى الذى كان يعيش أيضا بالبصرة ، كما عاصر العلماء المسجديين بمسجد البصرة، وبينهم علماء اللغة والدين ، وفى طليعتهم الخليل بن أحمد.

وحاول ابن المقفع أن يحمى صديقه وأستاذه عبد الحميد الكاتب ، يوم أن جاء الطلب من العباسيين لرأس عبد الحميد ، فزعم أنه هو عبد الحميد، مثلما زعم عبد الحميد أنه هو عبد الحميد ، ولم يفرق بينهما إلا بأثر شج كان فى رأس عبد الحميد . وكان عبد الحميد كاتبا لمروان بن محمد آخر خلفاء القهر الأمويين ، فأخذ الطالبون عبد الحميد ، وتركوا ابن المقفع ، وقتل عبد الحميد بوضع طست محمى على رأسه ، راح يصعقه على مهل.

وصار ابن المقفع . بعد أن استقر الأمر لبنى العباس ، خلال سنوات معدودة، كاتبا لأعمام الخليفة أبى جعفر المنصور . وكانوا يحملون فى أنفسهم لابن أخيهم المنصور حقدا وعداء دفينين . وورطه الأعمام فى كتابة عهد أقسم فيه المنصور بالطلاق لنسائه ، والعتاق لجواريه ، على الأمان لأعمامه، والوفاء بعهد أخيه الراحل أبى العباس السفاح ، بأن يكون

أحد هؤلاء الأعمام وليا لعهده، وخليفة من بعده . ولاشك أن المنصور قد أسرها في نفسه لهذا الكاتب المستعرب ، الصواغ الماهر للأفكار والكلمات، وصار أمره مع المنصور مسألة وقت ، وانتظار لوقوع الفريسة في الشرك.

وراح ابن المقفع وهو بالبصرة يواصل مشروعاته الفكرية الخاصة في أوقات فراغه، ترجمة عن الفارسية ، وتأليفا بالعربية ، وفي مقدمة ترجماته كانت قصص **كليلة ودمنة**، ومع أنها على ألسنة الحيوانات، وبين الحيوانات، وفي عالم الحيوانات ، فرموزها ومعانيها ومراميها وغاياتها وأهدافها السياسية لا تخفى على أحد في زمانه ولا بعد زمانه ، في قضية الحكم، وقضية الحاكم ، وقضية المحكومين ، فعالم الحيوانات عالم غابة ، وعالم الخلافة في زمانه كان عالم غابة أيضا.

ووقعت الطامة الكبرى على رأس ابن المقفع ، وتحقق المجد الأعظم لابن المقفع ، حين ساءته أحوال عصره ، خلافة ومستخلفا عليهم ، وقادة وجندا، وقضاة، وجباة جزية ، وعمال خراج ، فخط بلسان عربي مبين، وريشة من البوص علمه عبد الحميد من قبل كيف يبريها، ويسويها، ويقطعها قطعا ماثلا، ويشق سنانها شقا لا يكاد يرى. خط **رسالة الصحابة**، وأعطاها للوراقين، وبعث بها للخليفة أبي جعفر المنصور ، كرسالة من "ناصح أمين" لا يريد سوى الإصلاح ما استطاع، ناصح لا يقول بمثل نصحه أحد من صحابة الحاكم للحكام ، وأمين لم يستأمنه أحد على مصلحة أحد.

والصحابة الذين عناهم ابن المقفع هم حاشية الخليفة الحاكم وأعوانه ورجاله، من قضاة ، وقادة، وجند، وجباة، وعمال خراج، ولقد تستر ابن المقفع وتخفى وراء هذا العنوان "رسالة الصحابة" (والصحابة قرينة الأمانة أو الخلافة دائما) ولم يضع لوريقاته عنوان : "رسالة الخلافة"، أو "رسالة الإمامة" فكيف يضع مثل هذا العنوان ويوجهه لعامة يخضعون لبني العباس ، وخاصة هم أعوان لبني العباس ، والخليفة يعتبر نفسه "ظل الله الممدود في أرضه إن شاء بسطه فأعطى، وإن شاء قبض فأمسك".

وجاءت الرسالة جريئة وشجاعة ، تلف وتدور نعم، ولكنها تصيب بنقدها في مقتل ، وتشيع هذا النقد بين الكافة والخاصة ، ربما قبل

أن تصل إلى يد أبي جعفر . وفي هذه الرسالة ، كان مصرعه بتقطيع والى البصرة لأوصال جسده ، وهو حي ينظر ، وإلقائها أمام عينيه في أتون (فرن كبير) موقد بدار الولاية بالبصرة . وكان معه خادمه وحامل أوراقه وريشته ومحبرته، ينتظر عودته من لقاء والى البصرة ، وحين لم يعد ، وقد مرت ساعة بعد ساعة ، بعد ساعات . انطلق يصرخ ويولول في شوارع البصرة : قتل ابن المقفع . قتل ابن المقفع . وبادر المنصور، وهو الذى كان قد أوعز لوزيره بهذا القتل ، فأوعز به بدوره لوالى البصرة ، بادر بالقبض على والى البصرة ، مقيداً بالأغلال ، على ظهر جمل بلا سرج . وعقد مجلس طالب فيه أعمام الخليفة بدم ابن المقفع . ولكن أين جثة ابن المقفع حتى يمكن توجيه اتهام لأحد، فلا وجود لهذه الجثة ، ولعل ابن المقفع خاف بعد رسالته ، وذهب أبقا وهاربا في بلاد فارس ، أو في سواها من البلاد ، ولم ينكشف السر ، إلا بعد أن اعترف به من قام بقتله. ولكن بعد أن كان الخليفة ، والوزير ، والوالي ، والأعمام ، قد فارقوا الدنيا.

لم يهرب ابن المقفع في بلاد فارس ، ولا في سواها من البلاد ، لكن ما هرب ونجح في الهرب كانت رسالة الصحابة لابن المقفع ، هربت ونجحت في الهرب من بطش بني العباس ، ومن طغاة الترك ، والبويهيين، والسلجوقيين والفاطميين وطغاة سواهم بلا حصر ولا عد . وهربت من حرائق المغول لكتب بغداد . ونجحت في الهرب . لتصبح أوراقها من أندر صفحات التراث، وأوائلها في الفكر السياسي ، وثيقة على عصر خلافي ، من عصور خلافات القهر الإسلامية، وشهادة لمفكر شهيد : عبد الله بن المقفع ، أو "روزبه بن داذويه".

•

ورسالة الصحابة لابن المقفع تصدت لعدد من القضايا الاجتماعية التي كانت سائدة في زمانه ، خاصة في عهد الخليفة أبي جعفر المنصور ، الشهير بأبي الدوانيق لبخله الشديد.

في هذه الرسالة شخص ابن المقفع ، ككاتب ، ومفكر سياسي . مشكلات عصره ، في ضوء ثقافته الفارسية السياسية والاقتصادية والاجتماعية أولا ، وفي ضوء معايشته لمشكلات الواقع الاجتماعي في عصره، بعد أن تثقف بالثقافة العربية ، ودرب على الكتابة بالعربية ، على

يد أستاذه عبد الحميد الكاتب ، في الفترة التي قضاها من عمره كواحد من الرعايا الفرس بالدولة الأموية ، وحاول بهذا التشخيص ، أن يضع أفكارا أساسية للإصلاح الاجتماعي ، في مجتمع مسلم ، يضم عربا وفرسا ، وتحكمه الخلافة القرشية الهاشمية العباسية ، وحاول في هذه الأفكار أن يلائم بين العقل الفارسي والعقل الإسلامي ، لتكون بنت الحضارة الجديدة في العصر العباسي .

ونجح ابن المقفع في أن يضع يده على أمراض المجتمع العباسي الرئيسية، وأولها مرض السلطة الذي أصاب الخلفاء ، ومرض الفساد الذي أصاب رجال البلاط ، والجند، والولاة، ومرض اضطراب أحكام القضاة لاختلاف معتقداتهم ومذاهبهم الدينية ، وعدم وجود قوانين حاكمة فيما استجد من أمور على المجتمع الإسلامي.

وقد رأى ابن المقفع أن الخلفاء يميلون إلى الغدر، لوقوعهم في سوء الظن، بسبب سعايات خبيثة ، والغدر لؤم ، واللؤم من طباع ضعاف النفوس، في حين أن الخليفة الحاكم ، يجب أن يكون قويا، والقوي يعشق الأمانة . ورأى أن الخلفاء يميلون إلى البخل ، والبخل نقص في الطبع البشري ، وعلى الخليفة أن يكون سخيا، كي يسدل الستار على ما قد يقع فيه من سيئات، وما قد يقع فيه رجاله من مظالم . ورأى أن الخلفاء لا يحسنون اختيار الرجال لما يصلحون له من الأعمال. لأنهم يختارون بعواطفهم ، فيوقعهم هذا الاختيار في إبعاد الأكفاء عن السلطة ، وربما تحقق هذا الإبعاد منهم بالانتقام والجور، وقد لجأ ابن المقفع في مواجهته لهذا المرض الخلافي إلى الإشارة والتلميح ، تجنبا لغضب الخليفة وبطانته، وإلى الإبانة والتصريح حين لا يكون له مفر منهما.

وفي رسالة الصحابة أصبح ابن المقفع أكثر حرية في مواجهته لأمراض بطانة الخليفة ، وتصويره لآراء الناس فيهم ، فهي عندهم بطانة سوء، فلا حسب لديهم ولا مروءة ، ولا نجدة عندهم ولا شرف. ورجال البطانة هم صحابة الخليفة ، وبهم تصلح الرعية، وبهم تفسد . ولذلك يجب أن يحسن الخليفة اختيار رجال بطانته من أهل الخبرة ، من ذوي الاختصاص ، وأصحاب العقل ، فالمعرفة وحدها تهدي إلى سبل الرشاد ، والرخاء والأمن.

وأصبح ابن المقفع أكثر حرية في رسالته في مواجهة أمراض القضاء. وبدون نصحهم وعدلهم لا يمكن أن يبقى للملك أساس متين . فأحكام القضاء في زمانه كانت فوضى، وآراؤهم في القضية الواحدة كانت متناقضة تناقضا قبيحا، فالقضية الواحدة كان يحكم فيها بأحكام متناقضة ، فثمة قاض يحكم على ضوء السنة ، وقاض يحكم على ضوء القياس، وقاض يحتج بالسنة ولو كانت منقولة عن أي كان بلا تمحيص ولا فهم لجوهر السنة ، وقاض يعمل رأيه في المسألة التي تعرض برأيه وحده، دون نظر في كتاب الله ، ولا إتباع لسنة ، فيقع في أخطاء كثيرة سببها الغفلة الذهنية أو السهو ، أو ملابسات أخرى تحصل من جراء الاستبداد بالرأي.

ويقترح ابن المقفع توحيد القوانين بجمع الخليفة للفقهاء ، والاستعانة بدراساتهم وأبحاثهم ، وفهمهم للمسائل والقضايا والمشكلات في عصره ، وسعيه معهم لسن قانون عام متفق عليه ، يجب أن يسير عليه كل القضاة .

وقد دعا ابن رشد إلى هذه الفكرة نفسها في الأندلس بعد عدة قرون ، وكان قاضيا للقضاة في الأندلس والمغرب توحيدا لأسس العدل في الأمة، وحتى لا يحكم في البلد الواحد، بأحكام متناقضة في المسألة الواحدة.

وكلتا الدعوتين لم ينفذهما الخليفتان: الخليفة في بغداد ، والخليفة المرابطي فالموحدي في قرطبة .

والدعوة نفسها نجح نابليون بونابرت في تنفيذها في فرنسا سنة 1804 حين شكل لجنة من كبار رجال القانون والتشريع، ووحد بهم القانون الفرنسي، فيما عرف بالقانون المدني، أو قانون نابليون . وحل بونابرت بهذا التوحيد تفكك المناطق الفرنسية .

ولو فعل الخلفاء ذلك في أزمنتهم لقضوا على اختلاف العدل . وثغرات الظلم ، وتناقضات الفقهاء ، وصراعات الحركات السياسية والدينية والشعوبية في العالم الإسلامي في زمانهم .

وأصبح ابن المقفع في رسالته أكثر حرية في مواجهته لأمراض الجند وهم سياج الأمة . فغيرة القواد من بعضهم البعض ، وحسدهم لبعضهم البعض ، تحتل جوانب من قلوبهم ، والترف والزهو يفتكان بحياة القادة ، ومن وراءهم من الجند، وبذلك يحل الضعف فيهم ، ويشيع التنافس

بينهم ، وهم سياج الأمة ، وحين يتداعى ذلك السياج تظهر عوارت الأمة لأعدائها ، فيطمعون فيها ويستولون عليها ، فقد فتكت أمراض النفس الأربعة بروح الجندية ، ويقترح ابن المقفع أن يسعى الخليفة لاستلال الحسد والغيرة من قلوب القادة ، والطمع في الترف ، وروح الزهو، من نفوس الجند. ولا سبيل له إلى ذلك إلا بإبعاد الجند والقادة عن لين العيش ، ووضع الكل في المركز الذى يطيقه، ويصلح له ، والأمين في الوظيفة التي تجدر به وأساس إصلاحهم أن يبعدوا عن ولاية الخراج ، والأمصار، لأن ولايتهما مفسدة للمقاتلة ، وأن يعطوا رواتبهم ومكافآتهم في حين معلوم، حتى لا يضعفوا بالفقر والجوع ، ويقعوا في شراك الخيانة ، والتطلع إلى الحصول على المال، من أى طريق ، ولو كان حراما.

وغاب عن بال ابن المقفع ، كمفكر سياسي واجتماعي (وهو أول مفكر سياسي واجتماعي في تاريخ الإسلام بهذه الرسالة وحدها) أن يغلق أبواب أنصبة الغنائم والفيء عن الجنود والقادة ، فأحيانا يلجأون إلى شن حروب لا مبرر لها ولا صالح للأمة ولا للحكم فيها ، لمجرد كسب الغنائم، والحصول على نصيب من الفيء ، ويفتعلون وصولا إلى هذه الغاية ، ألوانا من الدعاوى والمبررات، يقدمونها معاذير ومحاذير للحكام وللشعوب.

وأصبح ابن المقفع أكثر حرية في مواجهته لأمراض الحياة ، وعمال الخراج عندما يباشرون أخذهم للأموال من أصحاب الأرزاق والأراضي . وأولها مرض إخفاء حقيقة مهمتهم عن الخليفة ، وإسدالهم الستر على أشياء كثيرة تحصل بين الناس . وهذا الإخفاء يتعمده عمال الخراج والجباة . فيؤثرون على مصلحة الخليفة الحكم تأثيرا سيئا ، مضرا وفادحا . ويقترح ابن المقفع أن تحصى قطع الأرض ، وأن تكتب أسماء الملاك في إضبارات رسمية ، ليعرف منها كل مالك وما يملك ، وما له وما عليه. ويؤدى كل مالك ما عليه من حق ، على ضوء قانون للأراضي معروف للكافة ، في القرى والمدن.

ويصبح ابن المقفع في رسالته أكثر حرية في مواجهة أمراض الشعب الاجتماعية ، فهو يرى أنه لا صلاح للشعب ، ولا علاج لأمراضه إلا بصلاح الحاكم ، وصلاح خاصته وصحابته (حاشيته) بحيث يصيرون مثلا وقدوة للناس ، وعليهم أن يكونوا رقباء لأحوال الشعب مؤدبين له

ومقومين لآدابه وعاداته. ولا طريق لإصلاح نفوس العامة بغير هذا الطريق ، فالناس على دين ملوكهم ورءوسهم. فأكثر الناس لا يستغنون برأى أنفسهم، ولا يحملون العلم ، ولا يبادرون بفعل الأصلح فى أمورهم.

ونسى ابن المقفع أن يقول إنه لا سبيل إلى ذلك إلا بالتربية من الصغر ، والتعليم من الصبا ، وإشاعة المعارف الأدبية والخلقية والعلمية .

ولم يكن لابن المقفع من سبيل فى هذه الرسالة ، لمناقشة قضية الحكم فى جوهرها . ولذلك لجأ إلى اللف والدوران خوفا من الخليفة الحاكم المستبد برأيه ، الشامل حكمه لكل الأرض وما عليها ، والمتسلح بالحكم المطلق ، وبقوى المال ، والعسكر ، والجند، والوعاظ، والقصاصين، فقد كان التوق الحضارى والعقلى فى زمانه ، همس نفوس ، لا يقدر أن يتجسد فى كلمة ، أو كلمات .

رسالة الصحابة

وردت هذه الرسالة في :
(١) جمهرة الرسائل.
(٢) رسائل البلغاء.
(٣) الأعمال الكاملة لابن المقفع.

أما بعد : أصلح الله أمير المؤمنين ، وأتم عليه النعمة، وألبسه المعافاة والصحة فإن أمير المؤمنين – حفظه الله – يجمع مع علمه ، المسألة والاستماع ، كما كان ولاة الشر يجمعون ، مع جهلهم ، العجب والاستغناء ؛ ويستوثق لنفسه بالحجة ويتخذها على رعيته فيما يلطف له من الفحص عن أمورهم ، كما كان أولئك يكتفون بالدعة ، ويرضون بدحوض الحجة [1] وانقطاع العذر في الامتناع ، أن يجترئ عليهم أحد برأي أو خبر ، مع تسلط الديان.

وقد عصم الله أمير المؤمنين – حين أهلك عدوه وشفى غليله ، ومكن له في الأرض ، وآتاه ملكها وخزائنها – من أن يشغل نفسه بالتمنع والتفيش[2] والتأثل والإتلاد [3] ، وأن يرضى مما أوى [4]بالمتاع به ، وقضاء حاجة النفس منه وأكرم الله أمير المؤمنين باستهانة ذلك واستصغاره إياه . وذلك من أبين علامات السعادة وأنجح الأعوان على الخير.

وقد قص الله عز وجل علينا من نبأ يوسف بن يعقوب أنه لما تمت نعمة الله عليه ، وآتاه الملك وعلمه من تأويل الأحاديث ، وجمع له شمله، وأقر عينه بأبويه ، وأخوته، أثنى على الله عز وجل بنعمته ، ثم سلا عما كان فيه ، وعرف أن الموت وما بعده هو أولى ، فقال : توفني مسلما وألحقني بالصالحين.

وفي الذي قد عرفنا من طريقة أمير المؤمنين ما يشجع ذا الرأي على مبادرته بالخبر فيما ظن أنه لم يبلغه إياه غيره، وبالتذكير بما قد انتهى إليه. ولا يزيد صاحب الرأي على أن يكون مخبرا أو مذكرا ، وكل عند أمير المؤمنين مقبول إن شاء الله . مع أن مما يزيد ذوي الألباب نشاطا إلى

---

(١) دحوض الحجة : بطلانها . والفعل كمنع .

(٢) ويريد بالتفيش : الكبر والادلال ؛ يقال : فاش الرجل، إذا افتخر . ولعل خير ما ينساق مع التفيش ، التمنع ، بمعنى العز، وتمنع الرجل، إذا اعتز وتعسر.

(٣) التأثل: جمع المال واكتسابه ، وإتلاده ، أي: تنميته . يقال : تلد المال يتلد (بضم اللام وكسرها): ولد عندك ونتج؛ وأتلدته أنت.

(٤) أوى: جمع . وأوى ، بالقصر، بمعنى آوى ؛ بالمد.

إعمال الرأى ، فيما يصلح الله به الأمة فى يومها أو غابر [1] دهرها، الذى [2] أصبحوا قد طمعوا فيه . ولعل ذلك أن يكون على يدى أمير المؤمنين ؛ فإن مع الطمع الجد، ومع اليأس القعود . وقلما ضعف الرجاء إلا ذهب الرخاء . وطلب المؤيس [3] عجز ، وطلب الطامع حزم . ولم ندرك الناس نحن ولا آباؤنا إلا وهم يرون فيها خلالها تقطع الرأى وتمسك بالأفواه، من حال وال لم يهمه الإصلاح، أو أهمه ذلك ولم يثق فيه بفضل رأى ، أو كان ذا رأى وليس مع رأيه صول بصرامة أو حزم ، أو كان ذلك استئثارا منه على الناس بنشب ، أو قلة تقدم لما يجمع أو يقسم ، أو حال أعوان يبتلى بهم الولاة ليسوا على الخير بأعوان ، وليس له إلى اقتلاعهم سبيل ، لمكانهم من الأمر، ومخافة الدول والفساد إن هو هاجهم أو انتقص ما فى أيديهم ، أو حال رعية متزرة [4] ليس من أمرها النصف فى نفسها ، فإن أخذت بالشدة حميت وإن أخذت باللين طغت .

وكل هذه الخلائق قد طهر الله منها أمير المؤمنين فأتاه فى نيته ومقدرته وعزمه ، ثم لم يزل يرى ذلك منه الناس حتى عرفه منهم جهالهم فضلا عن علمائهم . وصنع الله لأمير المؤمنين ألطف الصنع فى اقتلاع من كان يشركه فى أمره على غير طريقته ورأيه ، حتى أراحه الله وأمنه منهم ، بما جعلوا من الحجة والسبيل على أنفسهم ، وما قوى الله عليه أمير المؤمنين فى رأيه وإتباعه مرضاته ، وأذل الله لأمير المؤمنين رعيته بما جمع له من اللين والعفو ، فإن لان لأحد منهم ففى الإلحان [5] له شهيد، على أن ذلك ليس بضعف ولا مصانعة ؛ وإن اشتد على أحد منهم ففى

---

(١) غبر : مكث وذهب، من الأضداد، والمراد هنا الأول.
(٢) الذى، اسم أن.
(٣) المؤيس (بتشديد الياء المفتوحة) : اسم مفعول من "أيسته" إذا جعلته يقنط.
(٤) اتزر : ارتكب الوزر ، وهو الذنب.
(٥) الألحان : الأفهام.

العفو شهيد ، على أن ذلك ليس بعنف ولا خرق مع أمور سوى ذلك نكف عن ذكرها ، كراهة أن نكون كأنا نصبنا للمدح.

فما أخلق هذه الأشياء أن تكون عتادا لكل جسيم من الخير في الدنيا والآخرة ، واليوم والغد، والخاصة والعامة ، وما أرجانا لأن يكون أمير المؤمنين بما يصلح الله الأمة من بعده أشد اهتماما من بعض الولاة بما يصلح رعيته في سلطانه . وما أشد ما قد استبان لنا أن أمير المؤمنين أطول بأمر الأمة عناية ، ولها نظرا وتقديرا ، من الرجل منا بخاصة أهله. ففي دون هذا ما يثبت الأمل، وينشط للعمل ، ولا قوة إلا بالله، ولله الحمد، وعلى الله التمام.

فمن الأمور التي يذكر بها أمير المؤمنين ، أمتع الله به ، أمر هذا الجند من أهل خراسان ، فإنهم جند لم يدرك مثلهم في الإسلام ، وفيهم صفة بها يتم فضلهم إن شاء الله . أما هم فأهل بصر بالطاعة ، وفضل عند الناس، وعفاف نفوس وفروج ، وكف عن الفساد ، وذل للولاة . فهذه حال لا نعلمها توجد عند أحد غيرهم . وأما ما يحتاجون فيه إلى النفعة [1] ، من ذلك تقويم أيديهم ورأيهم وكلامهم؛ فإن في ذلك القوم أخلاطا من رأس مفرط غال، وتابع متحير شاك. ومن كان إنما يصول على الناس بقوم لا يعرف منهم الموافقة في الرأي والقول والسيرة ، فهو كراكب الأسد الذي يوجل من رآه ، والراكب أشد وجلا. فلو أن أمير المؤمنين كتب أمانا معروفا بليغا وجيزا محيطا بكل شيء يجب أن يعملوا فيه أو يكفوا عنه، بالغا في الحجة قاصرا عن الغلو، يحفظه رؤساؤهم ، حتى يقودوا به دهماءهم، ويتعهدوا به منهم من دونهم من عرض الناس [2]، لكان ذلك ، إن شاء الله ، لرأيهم صلاحا ، وعلى من سواهم حجة ، وعند الله عذرا ، فإن كثيرا من المتكلمين من قواد أمير المؤمنين اليوم إنما عامة كلامهم ، فيما يأمر الأمر ويزعم الزاعم ، أن أمير المؤمنين لو أمر الجبال أن تسير سارت ، ولو أمر أن تستدير القبلة بالصلاة فعل ذلك ، وهذا كلام قل أن يسمعه من كان مخالفا ، وقلما يرد في سمع السامع إلا أحدث في قلبه

---

(١) النفعة : العصا، يريد ما يحتاجون فيه إلى التأديب.

(٢) عرض الناس : عامتهم.

ريبة وشكا . والذى يقول أهل القصد[1] من المسلمين هو للأمـــر، وأعـــز للسلطان ، وأقمع للمخالف ، وأرضى للموافـــق وأثبـــت للعـــذر عنـــد الله عز وجل.

فإنا قد سمعنا فريقا من الناس يقولون : لا طاعة للمخلـــوق فـــى معصية الخالق، بنوا قولهم هذا بناء معوجا، فقـــالوا : إن أمرنـــا الإمـــام بمعصية الله فهو أهل أن يعصى ، وإن أمرنا الإمام بطاعة الله فهو أهل أن يطاع ؛ فإذا كان الإمام يعصى فى المعصية ، وكان غير الإمام يطاع فـــى الطاعة ، فالإمام ومن سواه على حق الطاعة سواء ، وهذا قـــول معلـــوم يجده الشيطان ذريعة إلى خلع الطاعة والذى فيه أمنيته ، لكى يكون النـــاس نظائر ، ولا يقوم بأمرهم إمام ، ولا يكون على عدوهم منهم ثقل.

وسمعنا آخرين يقولون: بل نطيع الأئمة في كل أمورنا ،ولا نفتش عن طاعة الله ولا معصيته، ولا يكون أحد منا عليهم حســـيبا ، هـــم ولاة الأمر، وأهل العلم ونحن الأتباع وعلينا الطاعة والتسليم .

وليس هذا القول بأقل ضررا فى توهين السلطان وتهجين الطاعـــة من القول الذى قبله ؛ لأنه ينتهى إلى الفظيع المتفاحش من الأمـــر ، فـــى استحلال معصية الله جهارا صراحا.

وقال أهل الفضل والصواب : قد أصاب الذين قالوا : لا طاعـــة لمخلوق فى معصية الخالق ، ولم يصيبوا فـــى تعطيلـــهم طاعـــة الأئمـــة وتسخيفهم إياها. وأصاب الذين أقروا بطاعة الأئمة لما حققوا منها ، ولـــم يصيبوا فيما أبهموا من ذلك فى الأمور كلها.

فأما إقرارنا بأنه لا يطاع الإمام فى معصية الله ؛ فإن ذلـــك فـــى عزائم الفرائض والحدود التى لم يجعل الله لأحد عليها ســـلطانا ، ولـــو أن الإمام نهى عن الصلاة والصيام والحج، أو منع الحدود وأباح ما حرم الله ، لم يكن له فى ذلك أمر.

فأما إثباتنا للإمام الطاعة فيما لا يطاع فيه غيره ؛ فإن ذلك فـــى الرأى والتدبير والأمر الذى جعل الله أزمته وعراه بأيدى الأئمـــة ، ليـــس لأحد فيه أمر ولا طاعة ، مـــن الغـــزو والقفـــول ، والجمـــع والقســـم ، والاستعمال والعزل، والحكم بالرأى فيما لم يكن فيه أثر ، وإمضاء الحـــدود

---

(١) أهل القصد : أهل الاعتدال.

والأحكام على الكتاب والسنة ، ومحاربة العدو ومهادنته ، والأخذ للمسلمين والإعطاء عنهم . وهذه الأمور كلها وأشباهها من طاعة الله عز وجل الواجبة ، وليس لأحد من الناس فيها حق إلا الإمام، ومن عصى الإمام فيها أو خذله فقد أوتغ (١) نفسه.

وليس يفترق هذان الأمران إلا ببرهان من الله عز وجل؛ وذلك أن الله جعل قوام الناس وصلاح معاشهم ومعادهم في خلتين : الدين والعقل، ولم تكن عقولهم – وإن كانت نعمة الله عز وجل عظمت عليهم فيها – بالغة معرفة الهدى ، ولا مبلغة أهلها رضوان الله ، إلا ما أكمل لهم من النعمة بالدين الذى شرع لهم ، وشرح به صدر من أراد هداه منهم ثم لو أن الدين جاء من الله ، لم يغادر حرفا من الأحكام والرأى والأمر وجميع ما هو وارد على الناس وحادث فيهم ، مذ بعث الله رسول صلى الله عليه وسلم إلى يوم يلقونه ، إلا جاء فيه بعزيمة ، لكانوا قد كلفوا غير وسعهم ، فضيق عليهم فى دينهم ، وأتاهم ما لم تتسع أسماعهم لاستماعه ، ولا قلوبهم لفهمه ، ولحارت عقولهم وألبابهم التى أمتن الله بها عليهم ، ولكانت لغوا لا يحتاجون إليها فى شيء، ولا يعملونها إلا فى أمر قد أتاهم به تنزيل ؛ ولكن الله من عليهم بدينهم الذى لم يكن يسعه رأسهم كما قال عباد الله المتقون : "وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله".

ثم جعل ما سوى ذلك من الأمر والتدبير إلى الرأى ، وجعل الرأى إلى ولاة الأمر ، ليس للناس فى ذلك الأمر، شيء إلا الإشارة عند المشورة، والإجابة عند الدعوة والنصيحة بظهر الغيب.

ولا يستحق الوالى هذه الطاعة إلا بإقامة العزائم والسنن مما هو فى معنى ذلك. ثم ليس من وجوه القول وجه يلتمس فيه إثبات فضل أهل بيت أمير المؤمنين على أهل كل بيت ، وغير ذلك مما يحتاج الناس إلى ذكره، إلا وهو موجود فيه من الكلام الفاضل المعروف ما هو أبلغ مما يغلو فيه الغالون؛ فإن الحجة ثابتة والأمر واضح بحمد الله ونعمته.

ومما ينظر فيه لصلاح هذا الجند ألا يولى أحدا منهم شيئا من الخراج؛ فإن ولاية الخراج مفسدة للمقاتلة. ولم يزل الناس يتحامون ذلك منهم وينحونه عنهم ، لأنهم أهل دالة ودعوى بلاء ، وإذا كانوا جلابا

---

(١) أوتغ نفسه : أهلكها.

للدراهم والدنانير أجترءوا عليهما. وإذا وقعوا فى الخيانة صار كل أمرهم مدخولا : نصيحتهم وطاعتهم ، فإن حيل بينهم وبيسن وضعه أخرجتهم الحمية [1] . مع أن ولاية الخراج داعية إلى ذلة وحقرية [2] وهوان ، وإنما منزلة المقاتل منزلة الكرامة واللطف.

ومما ينظر فيه من أمرهم أن منهم من المجهولين من هو أفضل من بعض قادتهم ، فلو التمسوا وصنعوا [3] كانوا عدة وقوة ، وكان ذلك صلاحا لمن فوقهم من القادة ومن دونهم من العامة .

ومن ذلك تعهد أدبهم فى تعلم الكتاب ،والتفقه فى السنة ، والأمانة والعصمة ، والمباينة لأهل الهوى ،وأن يظهر فيهم من القصد والتواضع واجتناب رأى المترفين وشكلهم مثل الذى يأخذ به أمير المؤمنين فى أمر نفسه ، ولا يزال يطلع عليه من أمير المؤمنين ويخرج منه من القول ، مما يعرف به مقته للإتراف والإسراف وأهلهما ، ومحبته القصد والتواضع ومن أخذ بهما ، حتى يعلموا أن معروف أمير المؤمنين محظور عمن يكنزه بخلا، أو نفقه سرفا فى العطر واللباس والمغالاة بالنساء والمراكب ، وأن أمير المؤمنين يؤثر بالمعروف من وجهته المعروف والمواساة.

ومن ذلك أمر أرزاقهم ، أن يوقت لهم أمير المؤمنين وقتا يعرفونه فى كل ثلاثة أشهر أو أربعة أو ما بدا له ، وأن يعلم عامتهم العذر الذى فى ذلك ، من إقامة ديوانهم وجمل أسمائهم، ويعلموا الوقت الذى يأخذون فيه ، فينقطع الاستبطاء والشكوى ؛ فإن الكلمة الواحدة تخرج من أحدهم فى ذلك أهل أن تستعظم ، وإن باب ذلك جدير أن يحسم مع أن أمير المؤمنين قد علم كثرة أرزاقهم ، وكثرة المال الذى يخرج لهم، وأن هذا الخراج إن يكن رائجا لغلاء السعر ، فإنه لابد من الكساد والكسر ، وأن لكل شيء درة وغزارة ، وإنما درور خراج العراق بارتفاع الأسعار ، وإنما يحتاج الجند اليوم إلى ما يحتاجون إليه من كثرة الرزق لغلاء السعر.

---

(١) وضعه: وضع الخراج : حطه وانتقاصه . والحمية: الأنفة . وأخرجتهم ، أى جعلتهم يشقون عصا الطاعة.

(٢) الحقرية (بالضم): الذلة، من مصادر حقر.

(٣) صنعوا: أحسن إليهم.

فمن حسن التقدير ، إن شاء الله، ألا يدخل على الأرض ضرر، ولا بيت المال نقصان من قبل الرحمن، إلا دخل ذلك عليهم في أرزاقهم . مع أنه ليس عليهم في ذلك نقصان ؛ لأنهم يشترون بالقليل مثل ما كانوا يشترون بالكثير .

فأقول : لو أن أمير المؤمنين خلى [١] شيئا من الرزق ، فيجعل بعضه طعاما ، ويجعل بعضه علفا ، وأعطوه بأعيانه ، فإن قومت لهم قيمته فخرج ما خرج على حساية [٢] قيمة الطعام والعلف ، لم يكن في أرزاقهم لذلك نقصان عاجل يستنكرونه ، وكان ذلك مدرجة لثباتهم في نزالهم على العدو ، وإنصاف بيت المال من أنفسهم فيما يستبطئون ، مع أنه إن زاد السعر أخذوا بحصتهم من فضل ذلك.

ومن جماع الأمر وقوامه ، بإذن الله ، أن لا يخفى على أمير المؤمنين شيئا من أخبارهم وحالاتهم وباطن أمرهم بخراسان والعسكر والأطراف، وأن يحتقر في ذلك النفقة ، ولا يستعين فيه إلا بالثقات النصاح، فإن ترك ذلك وأشباهه أحق بتاركه من الاستعانة فيه بغير الثقة ، فتصير مغبته للجهالة والكذب.

ومما يذكر به أمير المؤمنين ، أمتع الله به ، امسر هذين المصرين[٣] ، فإنهم بعد أهل خراسان أقرب الناس إلى أن يكونوا شيعته وحقيبته [٤] ، مع اختلاطهم بأهل خراسان ، وأنهم منهم عامتهم ، وإنما ينظر أمير المؤمنين منهم.. [٥] صدق، ولرابطتهم ، وما أراد من أمورهم معرفته استعان أهل خراسان على ذلك من أمرهم ، مع الذى في ذلك من

---

(١) خلى: انتقص واقتطع.
(٢) الحساية : الحساب.
(٣) البصرة والكوفة.
(٤) حقيبته: خاصته وموضع سره.
(٥) كان يجب أن يكون الكلام أوضح حتى يفهم ولكن سقوط بعض الألفاظ حال دون الوضوح.

خبال [1] الأمر واختلاف الناس بالناس : العرب العجم ، وأهل خراسان بالمصرين.

إن في أهل العراق يا أمير المؤمنين من الفقه والعفاف والألباب والألسنة شيئا لا يكاد يشك أنه ليس في جميع من سواهم من أهل القبلة مثله ولا مثل نصفه ، فلو أراد أمير المؤمنين أن يكتفي في جميع ما يلتمس له بأهل هذه الطبقة من الناس رجونا أن يكون ذلك فيهم موجودا . وقد أزرى بأهل العراق في تلك الطبقة أن ولاة العراق فيما مضى كانوا أشرار الولاة، وأن أعوانهم من أهل أمصارهم كانوا كذلك ، فحمل جميع أهل العراق على ما ظهر من أولئك الفسول[2] ، وتعلق بذلك أعداؤهم من أهل الشام فنعوه عليهم . ثم كانت هذه الدولة ، فلم يتعلق من دونكم من الوزراء والعمال إلا بالأقرب فالأقرب ممن دنا منهم ، أو وجدوه بسبيل شيء من الأمر ، فوقع رجال مواقع شائنة لجميع أهل العراق حيثما وقعوا من صحابة خليفة ، أو ولاية عمل، أو موضع أمانة ، أو موطن جهاد. وكان من رأى أهل الفضل أن يقصدوا حيث يلتمسون ، فأبطأ ذلك بهم أن يعرفوا وينتفع بهم . وإن كان صاحب السلطان ممن لم يعرفه الناس قبل أن يليهم ، ثم لم يزل يسأل عنهم من يعرفهم ويستثبت في استقصائهم ، زالت الأمور عن مراكزها ، ونزلت الرجال عن منازلها ؛ لأن الناس لا يلقونه إلا متصنعين بأحسن ما يقدرون عليه من الصمت والكلام . غير أن أهل هذا النقص هم أشد تصنعا، وأحلى ألسنة ، وأرفق تلطفا للوزراء أو تمحلا لأن يثني عليهم من وراء وراء. فإذا آثر الوالي أن يستخلص رجلا واحدا ممن ليس لذلك أهلا دعا إلى نفسه جميع ذلك الشرج [3] ، وطمعوا فيه ، وأجترءوا عليه ، وتواردوه وتزاحموا على ما عنده . وإذا رأى ذلك أهل الفضل كفوا عنه ، وباعدوا منه، وكرهوا أن يسيروا في غير موضعهم ، أو يزاحموا غير نظرائهم.

---

(١) خبال الأمر : اضطرابه واختلاطه.

(٢) الفسول : الضعاف الأدنياء

(٣) الشرج: المثل والنوع.

ومما ينظر أمير المؤمنين فيه من أمر هذين المصرين وغيرهما من الأمصار والنواحي ، اختلاف هذه الأحكام المتناقضة التي قد بلغ اختلافها أمرا عظيما في الدماء والفروج والأموال، فيستحل الدم والفرج بالحيرة ، وهما يحرمان بالكوفة، ويكون مثل ذلك الاختلاف في جوف الكوفة ، فيستحل في ناحية منها ما يحرم في ناحية أخرى . غير أنه على كثرة ألوانه نافذ على المسلمين في دمائهم وحرمهم ، يقضي به قضاة جائز أمرهم وحكمهم . مع أنه ليس ممن ينظر في ذلك من أهل العراق وأهل الحجاز فريق إلا قد لج بهم العجب بما في أيديهم ، والاستخفاف بمن سواهم ، فأقحمهم ذلك في الأمور التي يتبيغ [1] بها من سمعها من ذوي الألباب.

أما من يدعي لزوم السنة منهم فيجعل ما ليس سنة سنة ، حتى يبلغ ذلك به إلى أن يسفك الدم بغير بينة ولا حجة على الأمر الذي يزعم أنه سنة. وإذا سئل عن ذلك لم يستطع أن يقول هريق [2] فيه دم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أو أئمة الهدى من بعده، وإذا قيل له : أي دم سفك على هذه السنة التي تزعمون ؟ قال : فعل ذلك عبد الملك بن مروان أو أمير من بعض أولئك الأمراء . وإنما يأخذ بالرأي به الاعتزام على رأيه أن يقول في الأمر الجسيم من أمر المسلمين ، قولا لا يوافقه عليه أحد من المسلمين ، ثم لا يستوحش لانفراده بذلك وإمضائه الحكم عليه ، وهو مقر أنه رأى منه لا يحتج بكتاب ولا سنة فلو رأى أمير المؤمنين أن يأمر بهذه الأقضية والسير المختلفة فترفع إليه في كتاب ، ويرفع معها ما يحتج به كل قوم من سنة وقياس ، ثم نظر في ذلك أمير المؤمنين وأمضى في كل قضية رأيه الذي يلهمه الله ، ويعزم عليه عزما وينهى عن القضاء بخلافه ، وكتب بذلك كتابا جامعا، لرجونا أن يجعل الله هذه الأحكام المختلطة الصواب بالخطأ حكما واحدا صوابا ، لرجونا أن يكون اجتماع السير قرينة لإجماع الأمر برأي أمير المؤمنين وعلى لسانه، ثم يكون ذلك من إمام آخر الدهر ؛ إن شاء الله.

---

(١) يتبيغ بها: يهيج.
(٢) هريق: أريق، أسيل.

فأما اختلاف الأحكام ، إما شيء مأثور عن السلف غير مجمع عليه ، يدبره قوم على وجه ويدبره آخرون على آخر ، فينظر فيه إلى أحق الفريقين بالتصديق ، وأشبه الأمرين بالعدل ؛ وإما رأى أجراه أهله على القياس فاختلف وانتشر ، بغلط في أصل المقايسة ، وابتداء أمر على غير مثاله . وأما لطول ملازمته القياس ؛ فإن من أراد أن يلزم القياس ولا يفارقه أبدا في أمر الدين والحكم ، وقع في الورطات ، ومضى على الشبهات ، وغمض على القبيح الذي يعرفه ويبصره ، فيأبى أن يتركه كراهة ترك القياس. وإنما القياس دليل يستدل به على المحاسن ، فإذا كان ما يقود إليه حسنا معروفا أخذ به ، وإذا قاد إلى القبيح المستنكر ترك ؛ لأن المبتغي ليس عين القياس يبغى ، ولكن محاسن الأمور ومعروفها وما ألحق الحق بأهله . ولو أن شيئا مستقيما على الناس ومنقادا حيث قيد لكان الصدق هو ذلك، ولا يعتبر بالمقاييس ، فإنه لو أراد أن يقوده الصدق لم ينقد له ؛ وذلك أن رجلا لو قال: أتأمرني أن أصدق فلا أكذب كذبة أبدا ؟ لكان جوابه أن تقول : نعم . ثم لو التمس منه قول ذلك ، فقال : أالصدق في كذا وكذا ؟ حتى تبلغ به أن يقول الصدق في رجل هارب استدله عليه طالب ليظلمه فيقتله ، لكسر عليه قياسه، وكان الرأى له أن يترك ذلك وينصرف إلى المجمع عليه المعروف المستحسن.

ومما يذكر به أمير المؤمنين أهل الشام ، فإنهم أشد الناس مؤونة وأخوفهم عداوة وبائقة [(١)]، وليس يؤاخذهم أمير المؤمنين بالعداوة ولا يطمع منهم في الاستجماع على المودة . فمن الرأى في أمرهم أن يختص أمير المؤمنين منهم خاصة ممن يرجو عنده صلاحا ، أو يعرف منه نصيحة أو وفاء ، فإن أولئك لا يلبثون أن ينفصلوا عن أصحابهم في الرأى والهوى ، ويدخلوا فيما حملوا عليه من أمرهم ، فقد رأينا أشباه أولئك من أهل العراق الذين استدخلهم أهل الشام. ولكن أخذ في أمر أهل الشام على القصاص : حرموا كما كانوا يحرمون الناس ، وجعل فيئهم إلى غيرهم كما كان فيء غيرهم إليهم ، ونحوا عن المنابر والمجالس السابقة والأعمال ، كما كانوا ينحون عن ذلك من لا يجهلون فضله في السابقة والمواضع ،

---

(١) البائقة : الغدر.

ومنعت منهم المرافق كما كانوا يمنعون الناس أن ينالوا معهم أكلة من الطعام الذى يصنعه أمراؤهم للعامة.

فإن رغب أمير المؤمنين لنفسه عن هذه السيرة وما أشبهها ، فلم يعارض ما عاب ، ولم يمثل ما سخط ، كان العدل أن يقتصر بهم على فيئهم، فيجعل ما خرج من كور الشام فضلا من النفقات ، وما خرج من مصر فضلا من حقوق أهل المدينة ومكة [1] ، بأن يجعل أمير المؤمنين ديوان مقاتلتهم ديوانهم ، أو يزيد أو ينقص ، غير أنه يساخذ أهل القوة والغناء بخفة المؤنة والخفة فى الطاعة ، ولا يفضل أحدا منهم على أحد إلا على خاصة معلومة . ويكون الديوان كالغرض المستأنف . ويامر لكل جند من أجناد الشام [2] بعدة من العيالة [3] يقترعون عليها ، ويسوى بينهم فيما لم يكونوا أسوة فيه فيما مان من عيالتهم [4] ، فلا يضيع أحد من المسلمين.

وأما ما يتخوف المتخوفون من نزواتهم ، فلعمرى لئن أخذوا بالحق — ولم يؤخذوا به — إنهم لخلقاء ألا تكون لهم نزوات ونزقات . ولكنا على مثل اليقين ، بحمد الله ، من أنهم لم يشغلوا بذلك إلا أنفسهم ، وأن الدائرة[5] لأمير المؤمنين عليهم ، آخر الدهر ، إن شاء الله ؛ فإنه لم يخرج الملك من قوم إلا بقيت فيهم بقية يتوثبون بها، ثم كان ذلك التوثب هو سبب استئصالهم وتدويخهم.

ومما يذكر به أمير المؤمنين أمر أصحابه فإن ، من أولى أمر الوالى بالتثبت والتخير ، أمر أصحابه الذين هم فناؤه، وزينة مجلسه، وألسنة رعيته، والأعوان على رأيه، ومواضع كرامته ،والخاصة من

---

(١) أى يجعل ما خرج زائدا من كور الشام فى النفقات ، وما خرج زائدا من كور مصر فى حقوق أهل المدينة . ومكة.

(٢) أجناد الشام : خمس كور : دمشق وحمص وقنسرين والأردن وفلسطين . وهذه الخمسة أماكن كل واحد منها يسمى جندا ؛ أى: المقيمين بها من المسلمين المقاتلين.

(٣) العيالة : الكفاية من المؤن ، يقال : عاله عيالة ، إذا كفاه وأنفق عليه.

(٤) أى: يسوى بينهم فيما يكفيهم ويعولهم .

(٥) الدائرة : الغلبة.

عامته؛ فإن أمر هذه الصحابة قد عمل فيه من كان وليه من الوزراء والكتاب قبل خلافة أمير المؤمنين عملا قبيحا مفرط القبح ، مفسدا للحسب والأدب والسياسة ، داعيا للأشرار ، طاردا للأخيار ، فصارت صحبة الخليفة أمرا سخيفا، فطمع فيه الأوغاد، وتزهد إليه من كان يرغب فيما دونه ، حتى إذا لقينا أبا العباس – رحمة الله عليه – وكنت في ناس من صلحاء أهل البصرة ووجوههم ، فكنت في عصابة منهم أبوا أن يأتوه، فمنهم من تغيب فلم يقدم ، ومنهم من هرب بعد قدومه اختيارا للمعصية على سوء الموضع ، لا يعتذرون في ذلك إلا بضياع المكتسب والدعوة والمدخل[1] ، يقولون : هذه منزلة كان من هو أشرف من أبنائنا يرغبون فيما هو دونها عند من هو أصغر من أمراء ولاتنا اليوم ، ولكنها قد كانت مكرمة وحسبا ، إذ الناس ينظرون ويسأل عنهم. فأما اليوم ، ونحن نرى فلانا وفلانا ينفر بأسمائهم ، على غير قديم سلف، ولا بلاء حدث، فمن يرغب فيما هاهنا يا أمير المؤمنين أكرمك الله ، إلا أن يصير العدل كله إلى تقوى الله عز وجل ، وإنزال الأمور منازلها ؛ فإن الأول قال:

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم.
ولا سراة إذا جهالهم سادوا

وقال:

هم سودوا نصرا ، وكل قبيلة
يبين عن أحلامها من يسودها

وإن أمر هذه الصحابة قد كان فيه أعاجيب دخلت فيها مظالم . أما العجب فقد سمعنا من الناس من يقول : ما رأينا أعجوبة قط أعجب من هذه الصحابة ، ممن لا ينتهى إلى أدب ذى نباهة ، ولا حسب معروف ، ثم هو مسخوط الرأى ، مشهور بالفجور فى أهل مصره ، قد غبر عامة دهره صانعا يعمل بيده ، ولا يعتد مع ذلك ببلاء ولا غناء ، إلا أنه مكنه من

(١) المكتب ، أى: الكتابة . ويريد بالدعوة : الأذن . والمدخل: الدخول على الخليفة .

الأمر صاغ[1] ، فانتهى إلى حيث أحب ، فصار يؤذن له على الخليفة قبل كثير من أبناء المهاجرين والأنصار ، وقبل قرابة أمير المؤمنين وأهل بيوتات العرب، ويجرى عليه من الرزق الضعف مما يجرى على كثير من بنى هاشم وغيرهم من سروات قريش ، ويخرج له من المعونة على نحو ذلك. لم يضعه بهذا الموضع رعاية رحم، ولا فقه فى دين، ولا بلاء فى مجاهدة عدو معروفة ماضية شائعة قديمة ، ولا غناء حديث ، ولا حاجة إليه فى شيء من الأشياء ، ولا عدة يستعد بها، وليس بفارس ولا خطيب ولا علامة ، إلا أنه خدم كاتبا أو حاجبا ، فأخبره أن الدين لا يقوم إلا به ، حتى كتب كيف شاء ، ودخل حيث شاء.

وأما المظلمة التى دخلت فى ذلك فعظيمة ، قد خصت قريشا ، وعمت كثيرا من الناس ، وأدخلت على الأحساب والمروءات محنة شديدة وضياعا كثيرا ،؛ فإن فى إذن الخليفة فى المدخل عليه والمجلس عنده، وما يجرى على صحابته من الرزق والمعونة ، وتفضيل بعضهم على بعض فى ذلك، حكما عظيما على الناس فى أنسابهم وأخطارهم وبلاء أهل البلاء منهم. وليس ذلك كخواص المعروف ولطيف المنازل أو الأعمال يختص بها المولى من أحب ، ولكنه باب من القضاء جسيم عام، يقضى فيه للماضين من أهل السوابق ، والباقين من أهل المآثر ، وأهل البلاء والغناء بالعدل أو بما يخال فيه عليهم ، فإن أحق المظالم بتعجيل الرفع والتغيير ما كان ضره عائبا، وكان للسلطان سائنا ، ثم لم يكن فى رفعه مؤونة ولا شغب ولا توغير لصدور عامة ، ولا للقسوة والإضرار سبب.

ولصحابة أمير المؤمنين – أكرمه الله – مزية وفضل وهى مكرمة سنية ، حرية أن تكون شرفا لأهلها ، وحسبا لأعقابهم ، وحقيقة أن تصان وتحظر ، ولا يكون فيها إلا رجل بدر بخصلة من الخصال ، أو رجل له عند أمير المؤمنين خاصة بقرابة أو بلاء ، أو رجل يكون شرفه ورأيه وعمله أهلا لمجلس أمير المؤمنين وحديثه ومشورته ، أو صاحب نجدة يعرف بها ويستعد لها يجمع مع نجدته حسبا وعفافا، فيرفع من الجند إلى الصحابة ، أو رجل فقيه مصلح يوضع بين أظهر الناس لينتفعوا

---

[1] صاغ إليه : مال.

بصلاحه وفقهه ، أو رجل شريف لا يفسد نفسه أو غيرها . فأما من يتوسل بالشفاعات ، فإنه يكتفي أو يكتفى له بالمعروف والبر فيما لا يهجن رأيا، ولا يزيل أمرا عن مرتبته . ثم تكون تلك الصحابة المخلصة على منازلها ومداخلها ، لا يكون للكاتب فيها أمر في رفع رزق ولا وضعه ، ولا للحاجب في تقديم إذن ولا تأخيره.

ومما يذكر به أمير المؤمنين ، أمر فتيان أهل بيته وبنى أبيه وبنى على وبنى العباس ، فإن فيهم رجالا لو متعوا بجسام الأمور والأعمال سدوا وجوها ، وكانوا عدة لأخرى.

ومما يذكر به أمير المؤمنين أمر الأرض والخراج فإن أجسم ذلك وأعظمه خطرا ، وأشده مؤونة ، وأقربه من الضياع ، ما بين سهله وجبله، ليس له تفسير على الرساتيق [1] والقرى ، فليس للعمال أمر ينتهون إليه، ويحاسبون عليه ، ويحول بينهم وبين الحكم على أهل الأرض بعد ما يتأنقون لها في العمارة ، ويرجون لها فضل ما تعمل أيديهم ، فسيرة العمال فيهم إحدى ثنتين : إما رجل أخذ بالخرق والعنف من حيث وجد، وتتبع الرجال والرساتيق بالمغالاة ممن وجد؛ وإما رجل صاحب مساحة يستخرج ممن زرع ، ويترك من لم يزرع ، فيغرم من عمر ويسلم من أخرب . مع أن أصول الوظائف على الكور لم يكن لها ثبت ولا علم ، وليس من كورة إلا وقد غيرت وظيفتها مرارا ، فخفيت وظائف بعضها ، وبقيت وظائف بعض. فلو أن أمير المؤمنين أعمل رأيه في التوظيف على الرساتيق والقرى والأرضين وظائف معلومة ، وتدوين الدواوين بذلك ، وإثبات الأصول ، حتى لا يؤخذ رجل إلا بوظيفة قد عرفها وضمنها ، ولا يجتهد في عمارة إلا كان له فضلها ونفعها ، لرجونا أن يكون في ذلك صلاح للرعية ، وعمارة للأرض ، وحسم لأبواب الخيانة وغشم [2] العمال.

---

(١) الرساتيق : النواحي؛ الواحد رستاق (بالضم) معرب.
(٢) الغشم : الظلم.

وهذا رأى مؤونته شديدة ، ورجاله قليل ، ونفعه متأخر ، وليس بعد هذا في أمر الخراج إلا رأى قد رأينا أمير المؤمنين أخذ به ، ولم نره من أحد قبله ، من تخير العمال وتفقدهم ، والاستعتاب لهم، والاستبدال بهم.

ومما يذكر به أمير المؤمنين جزيرة العرب من الحجاز واليمن واليمامة وما سوى ذلك ، أن يكون من رأى أمير المؤمنين ، إذا سخت نفسه عن أموالها من الصدقات وغيرها، أن يختار لولايتها الخيار من أهل بيته وغيرهم؛ لأن ذلك من تمام السيرة العادلة ، والكلمة الحسنة التى قد رزق الله أمير المؤمنين وأكرمه بها من الرأى الذى هو بإذن الله حمى ونظام لهذه الأمور كلها في الأمصار والأجناد والثغور والكور.

إن بالناس من الاستجراح [1] والفساد ما قد علم أمير المؤمنين، وبهم من الحاجة إلى تقويم آدابهم وطرائقهم ما هو أشد من حاجتهم إلى أقواتهم التى يعيشون بها . وأهل كل مصر وجند أو ثغر فقراء إلى أن يكون لهم من أهل الفقه والسنة والسير والنصيحة مؤدبون مقومون يذكرون، ويبصرون الخطأ [2] ، ويعظون عن الجهل، ويمنعون عن البدع، ويحذرون الفتن ، ويتفقدون أمور عامة من هو بين أظهرهم حتى لا يخفى عليهم منها مهم ، ثم يستصلحون ذلك، ويعالجون ما استنكروا منهم بالرأى والرفق والنصح ، ويرفعون ما أعياهم إلى ما يرجون قوته عليهم ، مأمونين على سير ذلك وتحصينه ، بصراء بالرأى حين يبدو ، وأطباء باستئصاله قبل أن يتمكن .

وفى كل قوم خواص رجال عندهم على هذا معونة إذا صنعوا لذلك ، وتلطف لهم وأعينوا على رأيهم ، وقووا على معاشهم ، ببعض ما يفرغهم لذلك ، ويبسطهم له، وخطر هذا جسيم فى أمرين : أحدهما ، رجوع أهل الفساد إلى الصلاح ، وأهل الفرقة إلى الألفة ؛ والأمر الآخر أن لا يتحرك متحرك فى أمر من أمور العامة إلا وعين ناصحة ترمقه ، ولا يهمس هامس إلا وأذن شفيقة تصيخ نحوه، وإذا كان ذلك لا يقدر أهل

---

(١) الاستجراح : الفساد والعيب.
(٢) يبصرون الخطأ: يعرفونه ويوضحونه.

للفساد على تربص الأمور وتلقيحها ، وإذا لم تلقح كان نتائجها بإذن الله مأمونا.

وقد علمنا علما لا يخالطه شك أن عامة قط لم تصلح من قبل أنفسها، وأنها لم يأتها الصلاح إلا من قبل إمامها ؛ وذلك لأن عدد الناس في ضعفتهم[1] وجهالهم الذين لا يستغنون برأى أنفسهم ، ولا يحملون العلم، ولا يتقدمون فى الأمور . فإذا جعل الله فيهم خواص من أهل الدين والعقول ، ينظرون إليهم ويسمعون منهم ، واهتمت خواصهم بأمور عوامهم ، وأقبلوا عليها بجد ونصح ومثابرة وقوة ، جعل الله ذلك صلاحا لجماعتهم ، وسببا لأهل الصلاح من خواصهم ، وزيادة فيما أنعم الله به عليهم وبلاغا إلى الخير كله.

وحاجة الخواص إلى الإمام الذى يصلحهم الله به كحاجة العامة إلى خواصهم وأعظم من ذلك. فبالإمام يصلح الله أمرهم ، ويكبت أهل الطعن عليهم ، ويجمع رأيهم وكلمتهم ، ويبين لهم عند العامة منزلتهم . ويجعل لهم الحجة والأيد فى المقال على من نكب عن سبيل حقهم.

فلما رأينا هذه الأمور ينظم بعضها ببعض ، وعرفنا من أمر أمير المؤمنين ما بمثله جمع الله خواص المسلمين على الرغبة فى حسن المعاونة والمؤازرة والسعى فى صلاح عامتهم ، طمعنا لهم فى ذلك ، يا أمير المؤمنين ، وطمعنا فيه لعامتهم ورجونا أن لا يعمل بهذا الأمر أحد إلا رزقه الله المتابعة فيه والقوة عليه ، فإن الأمر إذا أعان على نفسه جعل للقائل مقالا، وهيأ للساعى نجاحا . ولا حول ولا قوة إلا بالله ؛ وهو رب الخلق ، وولى الأمر ، يقضى فى أمورهم ، ويدبر أمرهم بقدرة عزيزة ، وعلم سابق. فنسأله أن يعزم لأمير المؤمنين على المراشد ، ويحصنه بالحفظ والثبات. والسلام ، ولله الحمد والشكر.

---

(١) الضعفة والضعاف : جمع ضعيف.

المصادر والمراجع:

ابن الاثير	الكامل فى التاريخ
ابن تغرى بردى	النجوم الزاهرة
ابن خلدون	مقدمة ابن خلدون
ابن خلكان	وفيات الأعيان
ابن سعد	كتاب الطبقات الكبير
ابن شاكر الكتبى	فوات الوفيات
ابن طباطبا	الفخرى فى الآداب السلطانية
ابن عبد الحكم القدس	فتوح مصر
ابن عبد ربه	العقد الفريد
ابن قتيبة	الإمامة والسياسة
ابن هشام	سيرة ابن هشام
ابن المقفع	"رسالة الصحابة"
أرنولد توماس	الدعوة إلى الإسلام
أبو يوسف	كتاب الخراج
البغدادى	الفرق بين الفرق
البلاذرى	فتوح البلدان
البندارى	تاريخ دولة آل سلجوق
توماس أرنولد	الدعوة إلى الإسلام
جلال الدين السيوطى	تاريخ الخلفاء
حسن إبراهيم حسن	تاريخ الإسلام السياسى والثقافي والاجتماعى
الجشيارى	الوزراء والكتاب
الخطيب البغدادى	تاريخ بغداد
الدينورى	الأخبار الطوال
سليمان فياض	أئمة الإسلام الأربعة
الشهرستانى	الملل والنحل

الطبرى	تاريخ الأمم والملك
طه حسين	الفتنة الكبرى
على عبد الرازق	أصول الحكم
القزوينى	آثار البلاد وأخبار العباد
القفطى	إخبار العلماء بأخبار الحكماء
الكندى	كتاب الولاة والقضاة
الماوردى	الأحكام السلطانية
محمد أبو زهرة	تاريخ المذاهب الإسلامية
محمد سعيد العشماوى	الخلافة الإسلامية
محمد ضياء الدين الريس	الخراج
المقرى	نفح الطيب
النوبختى	فرق الشيعة
اليعقوبى	تاريخ اليعقوبى

الفهرس:

TOBGY PRESS
TEL.:3562364
شركة مطابع الطوبجي التجارية



هذا الكتاب

اعتدنا فيما نكتبه عن عصور الخلافة الإسلامية فى كتب التربية والتعليم، وفيما نقوله على ألسنة فقهاء ودعاة، أن نتحدث عن ازدهارات للخلافات الإسلامية وتجاهلنا مثالب هذه الخلافات، وصور قهرها للشعوب، ولأبناء هذه الشعوب، ومحن الفقهاء، والعلماء والكتاب والوزراء، فى ظل خلافات القهر، وسلبها لحقوق هذه الشعوب المسلمة فى تقرير مصيرها وتجاهلنا أن صور التقدم والازدهار برغم قهر هذه الخلافات صنعتها شعوب وأفراد، جنوا ثمار حضارات سابقة، وأضافوا إليها وغايتنا من هذا الكتاب أن نستل من كتب المؤرخين المسلمين، القدامى منهم والمحدثين، ومن تحليلات هؤلاء المؤرخين، صور هذا الوجه الآخر القبيح لخلافات القهر الإسلامية، ونضعها بين أيدى القارئين عامة والداعين اليوم إلى عودة النظام الخلافى خاصة